سلسلة الدروس والمحاضرات (١)

تزكيةُ النّفس

سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله

شناسنامه كتاب

اسم الكتاب:.....تزكية النفس

تأليف:.....سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله

نشر:.....مؤسسه حفظ ونشر آثار آية الله قاسم حفظه الله

الطبعة:.....الأولى ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

عدد النسخ:.....٥٠٠ نسخة

حق الطبع والنشر محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب بين يدي القاريء الكريم عصارة من عصارات رجل عرفناه قد أفنى عمره الذي ذرف على الثمانين في العلم المقرون بالعمل على صعيد تكميل نفسه ونفوس الآخرين ممن يصل إليهم صوته وكلمته. ونحن إذ نوصف حال المؤلف لا نبحث عن كيل المديح له، وإنما ليكون القاريء على اطلاع بقيمة هذه السطور المدوّنة وما يمكن أن تشكله من عطاء معرفي على طريق الكمال المنشود.

إنها كلمات أبعد ما تكون عن المصطلحات المعقدة التي تتسم بها بعض الكتب في هذا المجال، وإنما هي على منهج الكتاب المبين والأحاديث المطهّرة من سهولة اللفظ وعمق المعنى، وقد تميّزت شخصية ملقيها بشدة التدقيق في ما يقول

أثناء النطق بكل كلمة وحرف فضلاً عما يسبقها من مرحلة التحضير والتأمل والتفكير فيما سيلقي من محاضرة أو خطاب أو موعظة، وسيلمس القاريء من الأمثلة في كلام سماحته وإسقاطات الحديث على الواقع المعاش ما يكشف عن تدبّر وتفكّر مسبق كان قد شاهده وتمعن فيه المؤلف في حياته وحياة النفس الإنسانية ونظر في ذلك نظر العالم الذي تشبّع من النبع الصافي للاسلام المحمدي الأصيل الذي تمثله مدرسة أهل البيت عليهم السلام المستمسكة بالثقلين: كتاب الله والعترة المطهرة، ومن جهة أخرى نظر فيما تدبّر فيه نظر العامل المجاهد لنفسه منذ مطلع صباه وإلى أن بلغ الشيخوخة لم نعرف عنه تواني أو تكاسلاً في مسيرة جهاده التي يشهد بها البعيد والقريب، فكان من نتاجات هذا العمر المبارك المديد هو هذه المحاضرات القيمة في تزكية النفس التي ألقاها سماحة في بعض ليالي شهر رمضان المبارك من عام ١٤٤٤ هجرية في مقر إقامته في قم المقدسة.

ولقد قمنا بجمع تلك المحاضرات وتفريغها كتابياً، مع تعديلات جزئية في بعض الألفاظ لتناسب اللغة الكتابية، و نتقدم بجزيل الشكر والامتنان لسماحة الشيخ فارس العامر على

مابذله من جهد في تحقيق هذا الكتاب.

ونتقدم بجزيل الشكر والامتنان لسماحة الشيخ فارس العامر على مابذله من جهدٍ في تحقيق هذا الكتاب.

ختاماً، نسأل الله تعالى طول العمر والتأييد والموفقية لشيخنا سماحة الفقيه المجاهد آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم دام ظله وأن ينفعنا بعلمه وبأنفاسه الزاكية وأن يعيننا على أنفسنا بما يعين به الصالحين على أنفسهم، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

مؤسسة حفظ ونشر آثار

آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله

تمهيد

[ضرورة المعرفة]:

نرى أنفسنا -نحن الناس- أنّنا في تعاملنا مع كلّ ما يُحيط بنا من شيء ما نعايشه من هذا الكون من بحرٍ وبرٍّ وجوٍّ، ومن أشياء تملأ هذه الساحات، أنّنا نرى أنفسنا في تعاملنا معها، نتوقّف قبل ذلك معها، لنتعرّف على حقيقتها، وإذا لم يتيسّر لنا أن نتعرّف على حقيقتها نحاول أن نتعرف على خصائصها وسماتها وملازماتها.

أنت لا تتعامل مع الشجر حتى تحاول أن تتعرّف على طبيعة الشجر، ولا مع ثمر الشجر حتى تحاول أن تتعرّف على حقيقة هذا الثمر، ولا مع البحر، ولا مع الهواء، ولا مع التُراب، ولا مع الحيوان، ولا مع الإنسان.. لا تحاول أن تُقدِم على تصرّفٍ ما، على تعاملٍ ما، مع أيّ شيءٍ آخر دونك حتّى تتعرّف على طبيعة مَن

أو ما تتعامل معه. لا نستطيع أن نتعامل مع النار قبل أن نتعرّف على طبيعتها، على خصائصها، على آثارها، ماذا يعني الاقتراب منها؟ ماذا يعني الابتعاد عنها؟ لا نستطيع أن نتعامل مع التراب تعاملنا مع الماء، ولا مع الماء تعاملنا مع التراب.

الآن تتراكم عندنا معرفة كبيرة ضخمة جدّاً من خلال التاريخ الطويل للبشرية تُعيننا على التعامل الصحيح مع الأشياء، ولو أردنا أن نبتدئ من الصفر في التعامل مع أشياء الكون قبل أن نعرف طبائعها وملازماتها وخصائصها وآثارها لذهب منّا ضحايا كثيرون في سبيل وصول التجارب بنا إلى المعرفة الدقيقة اللائقة في التعامل مع هذا الشيء، أو ذلك الشيء.

الحديد، المغنيسيوم، كلّ معادن الأرض، التعامل معها قائمٌ على دراسة خصائصها وآثارها، وعناصرها وتكوينها، الذرّة.

لو تعامل الإنسان مع الحشرات، مع الميكروبات، مع الجراثيم في ظلّ الجهل بحقائق هذه الأشياء، أو بخصائصها لَعَرَّضَ نفسه إلى الهلاك. فنحنُ اِبتداءً مُحتاجون إلى المعرفة.

الخلاصة: إنّنا في كلّ تعاملنا محتاجون إلى المعرفة، المعرفة الأصوَب، الأرشَد، المعرفة الموضوعية، العلميّة الأدقّ.

يدخل أحدُنا البحر وهو لا يعرف طبيعة الماء وآثار الماء، وماذا يمكن أن يفعل فيه الماء، ويَلِجُ اللُجّةَ العميقة، والبحر الزَخَّار لِيَجِد نفسه لا يملك أن يبقي على حياته لحظةً واحدة، هذا إذا دخل البحر عن جهل.

في كلِّ تعاملٍ من تعاملنا نحن نحتاج إلى المعرفة الدقيقة الصائبة، والله عزَّ وجلّ قد راعى عباده، ووَفَّرَ لهم معرفة فطريّة وحسيّة، وأوْكَل إليهم السعي الكثير؛ لكي تكتمل معرفتهم بالأشياء من حولهم؛ ليُجيدوا التعامل معها، ويكون تعاملهم معها التعاملَ المُفيد غير الضارّ، والمُصلح غير المفسد.

هذا حالُنا نحن الناس -جميع الناس- مع الأشياء.

[معرفة الإنسان بنفسه]:

ولا أقرَبَ للإنسان من نفسه، ولا أكثرَ جهلاً منه بأيِّ شيءٍ آخر من جهله بنفسه، النفسُ غامضة، أسرارها كبيرة، النفسُ جُعِلَت مقابلةً للآفاق ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾[1]، آفاق الكون كلّها بما فيها من جوانب، والنفسُ عالَمٌ آخر.

وتعاملنا مع كلّ شيءٍ دون النفس، هو طريقٌ لربح النفس، لإجادة التعامل مع النفس، للانتفاع بالنفس.

١. سورة فصّلت: ٥٣.

لو عرفنا السماوات، وعرفنا الأرضين، وعرفنا كلّ علوم الأرض، أصعب علوم الأرض، وتعاملنا معها فعلاً، وحاولنا أن نستثمرها، ونحن نجهل النفس، قيمة النفس، حقيقة النفس، غاية وجود هذه النفس، شأن هذه النفس، ما يمكن أن تملك وما يمكن أن لا تملك، ما يُسعدها وما يُشقيها، لكانت معرفتنا بكلّ الأشياء الأخرى واستفادتنا منها، ونحن نتعامل بنتائجها مع النفس، في الجهل بالنفس، لكان هذا التعامل خاسراً ومضرّاً بأنفسنا.

عرفتُ بدني وما يحتاج إليه -والبدن جزءٌ من النفس-، ما ينفعه وما يضرّه، ما يُقيمه وما يهدّه ويطيح بقوّته، طبعاً هنا عليّ أن أعرف الأشياء الأخرى التي تفيد هذا الجسد أو تضرّه، التي تمدّه بالقوة أو تُضعفه، ما يُنمّيه وما يوقف نموّه، ما يُكسبه الصحة وما يُكسبه المرض، وما إلى ذلك. أعرف الجهتين: الجسد، والأشياء الأخرى التي تدخل في بناء هذا الجسد، أو في هدم هذا الجسد، في صحته أو مرضه، إذا عرفتُ كلّ شيء، ولم أعرف طبيعة جسدي وما يُصلحه وما يفسده ما فعلتُ بنفسي خيراً، ولو عرفتُ جسدي ولم أعرف ما يُصلحه وما يفسده أيضاً لن أستطيع أن أنفع جسدي.

موقع اهتمام الإنسان، وما كُلِّف به الإنسان بالدرجة الأولى هو نفسه، إصلاح نفسه، إنقاذ نفسه، سلامة نفسه، ربح نفسه.

[معنى نفس الإنسان]:

ما معنى نفس الإنسان؟

هذه النفس التي عليَّ أن أُسعِدها، أن أصلِحها، أن أرتفع بمستواها، ماهي؟

أقولُ بيدي هذه الورقة، وأقولُ قولاً آخر بيدي نفسُ هذه الورقة، وأقولُ قولاً ثالثاً بيدي هذه الورقة نفسُها، هل تختلف التعابير الثلاثة؟ أو هي بمؤدّىً واحد؟ ما هي نفسُ هذه الورقة؟ عندما أقول نفس هذه الورقة ماذا أعني بذلك؟ يعني هذه الورقة، نفسُ هذه الورقة هي هذه الورقة، والورقة نفسُها أي هي هي، نفسُ الإنسان هي الإنسان، الإنسان نفسُه، أي ما هو نفسُ الإنسان هو الإنسان، وما هو الإنسان هو نفس الإنسان، أنا نفسي يعني أنا، لقد تحدّثتَ لي ومعي نفسُك، يعني أنت الذي تحدّثت لي، فنفسُ الإنسان هي الإنسان بكلّ ما تشمله حقيقة الإنسان وتكوينه وكينونته وماهيته.

[البُعد الماديّ والمعنويّ عند الإنسان]:

والإنسان في تكوينه الرئيس هو قبضةٌ من الطين أو التراب، ونفخةٌ من روح الله تبارك وتعالى، قبضةُ الطين تتجسّد في هذا اللحم والدمّ والعصب والعَضَل والغضاريف وما إلى ذلك، هذه قبضة الطين، ومعها ميولٌ تخدمُها، الشهوات، الرغبات، الميول، الميل إلى غريزة الأكل، غريزة الشرب، هذا تابعٌ للجانب الطيني.

عندنا ميولٌ معنوية تتبع نفخة الروح، عشق العلم، عشق الكمال، ارتباطنا بالكمال اللامحدود، يعني أنت وأنا وكلّ الآخرين قد يخطؤون تصوّر الكمال، ولكنّهم لا يمكن لهم بحسب فطرتهم إلاّ أن يطلبوا سلوك طريق الكمال وإنْ أخطأوا ما هو هذا الطريق، وحَسِبوا ماهو طريق الكمال ليس هو طريق الكمال، وما هو غير طريقٍ للكمال حسبوه طريقاً للكمال، هذا يحدُث، لكنّ هل مطلب النفس هو أن تهبط، أن يتدانى مستواها، أن تنحطّ، أو أن تعظُم، أن تجلّ؟ فالمطلوب هو الكمال، النفسُ ميّالة للكمال، لذلك لا تشبع من العلم، من كلّ ما ترى فيه عِزّة، وفيه ظهور، وفيه قوّة. هو كمال. بعض الضعف من الممكن أن نعتبره قوّة، لكنّ القوة الحقيقية كمال. المَلَك على كماله هل يشعر بالاستغناء

عن المزيد من الكمال؟ لو شعر بذلك لتوقّف عن عبادة الله، ولاكتفى بكماله، إنّما يعبُد الله؛ لأنّه يرى الله كمالاً مطلقاً، ويرى من نفسه أنّه الكمال المحدود، وبتعلّقه بالله يرى من نفسه بأنّه يزداد كمالاً، كلّما أحسّ بالاقتراب من الله أحسَّ بالاقتراب أكثر من الكمال المطلق؛ ولذلك يُغريه هذا الاقتراب.

هل مَلَّ الرُسل الصلاةَ والصيامَ والعلم والتسبيح والتقديس لله عزَّ وجلّ؟ لا لم يملّوا، لماذا؟ لأنّهم يجدون في هذا مزيدَ كمالٍ.

نحن نتمنَّى مقام عليٍّ عليه السلام، عليٌّ عليه السلام يتمنَّى مقاماً أكبر من مقامه، كلّما تقدّم في الكمال ازداد شوقاً إلى المزيد، حلو، أنس، رِفعة، طمأنينة، رضا، هذا يُغري بطلب المزيد أو لا؟ قطعاً يُغري بطلب المزيد.

أنت تبدأ في أكل حلوى جديدة عليك لم تذُقها من قبل، قبل أن تشبع تبقى تتابع طلبها وأكلها أو لا؟ مفتوحٌ لك، لو اتسّعَ لك أن تأكل من هذه الحلوى اللذيذة يوماً كاملاً، لو وَسِعَت طبيعتك وطبيعة الاشتهاء، تواصل أو لا تواصل؟ تواصل، متى تقِف؟ حينما تحسُّ بالاكتفاء، والكمال لا تصلُ نفسُ الإنسان المخلوق المجبول على حُبّه إلى حدّ الإشباع، لاتصل لحدِّ

الإشباع، فتبقى دائماً تطلبُ الكمال، يَعْيَا الجسد، الذهن يتوقّف، تأتي عوائق ثانية، وحبُّ الكمال لا يتوقّف عند الإنسان.

نفسُ الإنسان هي المُكلَّف الإنسان بها أوّلاً وبالذات، وكلُّ سعينا لكمال ذواتنا، كلٌّ منّا يسعى لكمال ذاته.

[لماذا أمر الله ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام؟]

والإنسان قبضةُ طينٍ ونفخةُ روح، وكماله أين؟ متى سَجَد له الملائكة؟ متى أمَرَ الله عز وجل ملائكته أن تسجُد إليه؟ هل عندما استوى طيناً؟ ولو خُلِق جسداً بلا عقل، بأجمل صورة من الجسد، بأكمل وأروع هيئة، بأرقّ لوْن، هل تسجدُ له الملائكة؟ هكذا كان تصوُّر إبليس، النار شفّافة، التُراب مظلم، التراب يُداس، النار تُحرِق، ولها قوّة عالية، وتُنير، وهي مادّة.

خُلِقَ من نارٍ ورأى النار أكبرَ من الطين وإنْ كانا معاً من المادّة، فقَدَّم نفسه على المخلوق من الطين، ورأى أنَّ من حقّه أن يسجُد له آدم، وأنّ من حقّه أن لا يسجد لآدم، وخطّأ الله عزَّ وجلّ نظرته، فعاقبه العقاب الشديد لاستكباره، وَضَع الشيء في غير موضعه، لم يأمر الله عزَّ وجلّ بالسجود لآدم لجمال جسده، ولا لطوله ولا لعرضه، إنما لتعليمه الأسماء الحسنى، أو لتعليمه

أسماء الأشياء، العلم يُشرِّف، العلم يقرّب لله عزَّ وجلّ، هذا الذي رفع مستوى آدم.

[لا طريق لبلوغ الكمال إلا بمعرفة النفس]:

فنحن نتعرّف على الأشياء كلّ الأشياء من أجل أنفسنا، من أجل سعادة وكمال أنفسنا، ونتعرّف على أنفسنا لنعرف طريق تكميلها؛ لأنّه لا سعادة لنا إلا بكمال هذه النفس.

إذا كانت نفسٌ هي أكبر النفوس شأناً حسب ما خلقها الله عزَّ وجلّ، ولكن لم تعرف قيمتها، ولم تعرف وزنها، ما أعطت نفسها قدْرَها، هل تكون كبيرة من ناحية فعليّة؟ هي أكبرُ نفسٍ استعداداً، ولكنْ من ناحية فعليّة قد تتعامل مع نفسها كتعاملها مع نفس الحمار، أو مع نفس الحشرة، مع نفس الصرصور، صاحبها يقيسُها على مقاس الصراصير، الصرصور يعيش في «المجاري»، يتغذّى ويشرب ويجِد زاوية ليستدفئ، ويشمّ روائح طيبة في نظره، الصرصور هكذا.

أحدُنا لمّا يُقدِّر نفسه التي فيها نفخة الروح، يُقدِّرها على حدّ نفس الصرصور في تعامله معها، الصرصور ينكح، هو ينكح، يأكل، هو يأكل، يستقي، هو يستقي، يستدفئ، هو يستدفئ،

يَلِد، هو يَلِد، فيحصر حاجاته واهتماماته وأهدافه في هذا كلّه، ومن ناحية المواهب، العطايا الإلهية، العبقريّة، الشفافيّة، وعلى مستوى الاستعداد، إنسان كبير جدّاً، مخلوق كبير، ولكن وقد قاس نفسه في الحاجات العملية، وفي التعامل، حيث تعامل مع نفسه في ظلّ النظرة الخاطئة، نظرة أنّه بَدَن، وحاجات البدن هي المذكورة التي ذكرناها للصرصور، هي هذه حاجات البدن، فتعامل مع نفسه بَدناً، سيكون من ناحية فعليّة ماذا؟ إنساناً كاملا؟ مخلوقاً كبيراً؟ عظيماً؟ يكونُ ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[1]؟ أو يبقى تيساً إذا قاس نفسه على التيس؟ غنمة إذا قاس نفسه على الغنمة؟ صرصوراً وما إلى ذلك؟

كلُّ ما أُريده من هذا الحديث أنّه علينا أنْ لا نُخطئ الطريق، ليس لنا هدفٌ نَسعَدُ به، ونَعظُم به، ونَفخرُ بالوصول إليه، ونكتسبُ السيادة الحقيقية على ما سوانا، ليس لنا هدفٌ في هذه الحياة إلاّ أن نبلُغ الكمال الذي نُطيقه.

ولا طريقَ إلى بلوغ الكمال والسعادة إلا بأنْ نَعرِف أنفسنا.

---

١. سورة الإسراء: ٧٠.

خَلق النّفس وتزكيتها في القرآن الكريم

[النفس البشرية من أكبر آيات الله الدالّة على عظمته سبحانه]:

يقول القرآن الكريم: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[1]، إلى آخر الآيات الكريمة*.

الآيات في مساق القَسَم من الله عزَّ وجلّ لما خَلَق، مما يغني بآيات عظمته، وبراهين قدرته وجلاله وجماله وهيمنته، وبعلمه الذي لا يُحدّ، وفي كلّ شيءٍ مما خلق الله تبارك وتعالى آية، وكلّ آيات الله عظيمة.

والآية الواحدة من آيات الله تبارك وتعالى تكفي وحدها للإيمان به إلهاً عظيماً جليلاً جميلاً قديراً.

وهذه الآيات على عَظَمَة كلٍّ منها تتفاوت في العظمة، وفيما

١ سورة الشمس: ٧-١٠.

تغني به من عطاءات الجمال والجلال الإلهي، والنفْسُ البشرية من أكبر آيات الله عز وجل، فالإنسان عالَمٌ كبير كلّه أسرارٌ من أسرار عظمة الله عزَّ وجلّ، وكلّه آياتٌ باهرات، وأنوارُ هداية.

[قسم الله تعالى بعظمة النفس وتسويتها]:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[1]..

قسمٌ بتسوية النفس، وتسوية النفس معناه إيجادها مُعتَدِلة، مُتَسِقة، متناسقة، لا خلل فيها، لا نقص، لا فضول، هي بلا نقصٍ وبلا فضول. ليس فيها شيءٌ يُسجِّل على الله عزَّ وجلّ غفلة، أو يُسجِّل عليه جهلاً، أو يُسجِّل عليه قسوة، كلُّ شيءٍ فيها شاهدُ عظمة، وشاهدُ جمال، وشاهدُ جلال. ليس فيها شيءٌ من تخلُّف الصُنعة، ولا شيءٌ من مَسّ الجهل، ولا شيءٌ من خلاف الحكمة. يقفُ أمامها أكبرُ عقلٍ ممكن، فيرجعُ محتاراً مبهوراً مدهوشاً، ولا يصِلُ إلى ساحل عظمة هذه النفس المخلوقة من قِبل الله عزَّ وجلّ.

أأنت شريف، أأنت كريم؟ وقسمُ الله عزَّ وجلّ بتسوية النفس؛ لأنها غنيّةٌ بالجمال، وكاملة على مستوى عالَم الإمكان، دافعٌ

---

١ سورة الشمس: ٧.

لك، دافعٌ لي لئن نحترم هذه النفس، وأن نعطيها قدرها ووزنها، ونحنُ تلك النفس، فليس لك أن تنظر إلى نفسك النظرة الحقيرة، ولا تضعها في الموضع الحقير، ولا تُذلّها ولا تُهينها، ولا تسحق كرامتها بأنْ تُسجِدَها لغير الله عزَّ وجلّ، وبأن تجعل طاعتها لغير الله، هذه النفس جعلها الله بقدْر لا تسجدُ لمخلوق، اعرف نفسك، قَدِّر نفسك.

لم يأذن الله عزَّ وجلّ بأنْ تسجد هذه النفس لمخلوقٍ سجود الذلّة، وسجود الحقارة، وسجود المُنعَم عليه للمُنعِم الحقّ، سجودك بما أنّك فقيرٌ مطلق لا يكون إلا للغني المطلق، سجودك وأنت عليك أن تعرف أنّك العدمُ المطلق في نفسك لا يكون إلا للوجود المطلق، وأنا الضعيف، وأنا المسكين، وأنا المستكين، وأنا المفتقر مطلقاً لا يصحُّ لي، لنفسي أن تسجد للعاجزين، المخلوقين المفتقرين بالأصل، إنّما سجودها يكون لله وحده تبارك وتعالى.

تَذَكّر وأنتَ تقرأ ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ أنَّ هذا قسمٌ من الله بعظمة نفسك التي هي من عظمته، نفسُك التي هي أحقر شيءٍ بالأصل، هي عظيمةٌ بما أكسبها الله من عظمة التسوية لها.

سَيَكبُر أُناسٌ في نظرك، سَيَجِلُّون بالمال، أو بالقوّة، أو بجمال الخُلُق، أو بجمال العلم، أو بأيّ جمالٍ معنويٍ آخر، إلا أنّهم يَبقوْن غير مستحقّين بأن تسجُد لهم، السجود لله الذي يعني إظهار الذلّة الكاملة والخضوع والخشوع الكاملَيْن، والانقطاع والفاقة المطلقة لغناه وجلاله وجماله.

أيمكنك أن تحتقر نفسك؟ أيمكن لي أن أحتقر نفسي؟ أيملك أحدٌ منّي أن أعترف له بأنّي عبدٌ له؟، بأنّ له الطاعة المطلقة عليّ وإنْ خالفتُ الله في ذلك، هوَ نفسي، هو مثلي، عبدٌ مطلق، ذليل حقير مسكين مستكين. حتى وإن ملك الدنيا كلّها، ولكن هذا لا يحوّله عن موقعه، لا يجعله غنيّاً ذاتاً، هو لا يزال على فقره الذاتي، ومسكنته الذاتية، وذلّه الذاتي، وخشوعه الذاتي، وملكيته المطلقة لله. خاشع، جميل بإيمانه، بعلمه، جمالُه مستعارٌ، مُعطى من الله عزَّ وجلّ، وهو علامة عظمةٍ لله عزَّ وجلّ، وشيءٌ ضئيلٌ من جمال الله عزَّ وجلّ، هذا الجمال المُعطَى هو لا يملكه في نفسه، فالعبادة لله وحده، الطاعة المطلقة لله وحده.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾..

هذه النفس المسوّاة هذه التسوية العادلة المعتدلة المتعادلة، التي فيها تقابل قوى، تقابل استعدادات. هذه النفس استعدادُها للفلاح على حدّ استعدادها للخسَار، هي مشروع للسعادة كما هي مشروعٌ للشقاء، هي مشروعٌ للنجاح كما هي مشروعٌ للخيبة والفشل.

[ألهم الله النفس معرفة الشّر والخير]:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]

هذا من تسويتها. الإلهام إيصال الحقيقة إلى النفس من غير كدٍّ وعناءٍ وجُهدٍ وكَسْب، يراها مريحة، يراها موهوبة من الله عزَّ وجلّ، فالنفس وهبها الله هذه الرؤية، رؤية الفجور، الشرّ، ليس ذاتاً فقط، أرانا الشرّ بما هو شرّ، يعني مع تعريفه لنا بأنّه شرّ -مثلاً- السرقة، القتل، الظلم، سَلْب اليتيم حقّه، إلى آخره، هذه شرور، هذه الأفعال ليست فقط أعرفها وأعرف أمارسها، وإنَّما أعرف أنّها شرٌّ أيضاً، أنت تعرف الذات وتعرف الصِفة، صفة أنّ هذا شرّ، هذا أُريته وأُريته أنا.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾..

كما عرّفنا الله عزَّ وجلّ الظلم، وكيف نظلم، عرَّفنا أنّ هذا الفعل

١ سورة الشمس: ٨.

ظلم، عرّفنا أن العدل عدلٌ وأنّه ينبغي أن يُفعل، وعرّفنا أنّ الظلم ظلمٌ وينبغي أن لا يُفعل، وأرانا الحقّ مع كونه حقّاً، والباطل مع كونه باطلاً، ما عرَّفنا الله إياه على نحو الإلهام هو معرفة ذات الشرّ، وصِفة كونه شرّاً، ذات الخير وصِفة كونه خيراً، فنحن نفعل الخير عارفين بأنّه خير، ونفعل الشرّ عارفين بأنّه شرّ.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

هذه إراءة، أرانا الحقّ حقّاً، وبما هو حقّ، وأرانا الباطل باطلاً، وبما هو باطل، هذا فعلٌ من أفعال الله عزَّ وجلّ فينا بالفطرة على مستوى الخلق.

أعطانا -الله- إرادة فعل الخير، وإرادة فعل الشرّ، لم يجبرنا على الخير، ولم يجبرنا على الشرّ، بهذيْن الأمريْن، من جهة أنا قادر بإلهام الله أن أرى الخير وأعرف أنّه خير، وأرى الشرّ بقدرة الله عزَّ وجلّ وأعرف أنّه شرّ، هذه جهة. ومن جهة ثانية، أنا لستُ مجبَراً على فعل الخير، ولستُ مجبَراً على فعل الشرّ -بالاجبار التكويني-. لستُ فاقداً للاختيار، لست فاقداً للإرادة، لستُ مكتوف اليدين أمام فعل الخير؛ إذ أستطيع أن أفعله، وأمام فعل الشرّ؛ إذ أستطيع أن أفعله، نحن في نقطة الوسط من فعل الخير

والشرّ، بإرادتنا نقدّم فعل الخير على فعل الشرّ، وبإرادتنا نقدّم فعل الشرّ على فعل الخير.

نفسي فيها قابلية الميْل إلى الخير، وفيها قابلية الميْل إلى الشرّ، وبإرادتي أميلُ شيئاً فشيئاً، وأكثر وأكثر إلى الخير، أو أميل شيئاً فشيئاً، وأكثر وأكثر إلى الشرّ، حتّى يحصل انفصال بين نفسي وبين الميْل إلى الشرّ. يصِلُ الإنسان إلى درجة أن تنفصل نفسه عن الميل إلى الشرّ، فبدل أن تُحبّه تكرهه، أو أن يأخذها الميل التدريجي إلى الشرّ بحيث تتعلّق به ويكون أمنيتها، فتكره الخير، ومن النفوس مَن يصل إلى هذا الحدّ.

نفوس الأنبياء والأولياء ينقطع عنها الميل إلى الشرّ، ويبقى ميلُها كلّه لفعل الخير. نفوس الطواغيت الكبار تنقطع في ميلها عن الخير أيّ خير، وترتبط كلّ الارتباط، وتميل كلّ الميل، وتهوى كلّ الهوى فعل الشرّ.

هذا بفعل إرادتنا.

لا عُذر، لا عُذر، لا عُذر. كيف نصل إلى هذه الدرجة؟ مسؤولية مَن؟

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾..

صحيح فينا مَيْل طبيعي بمقدار مُعيَّن إلى الشرّ، إلى الظُلم، إلى الشهوات اللامسؤولة، الشهوات الماديّة والشهوات المعنوية، كالطاغوتية، الحكم بالظلم، الاستكبار على الآخرين، الظهور غير المُستحقّ، التنافس على الرئاسات الباطلة، هذه كلّها شهوات من نوع الشهوات المعنوية. يبقى الأكل الحرام، الإسراف في الأكل، في اللذات الجسديّة الأخرى، حتى التصرف في المُباحات، نوع من الشهوات التي قد نُربّي أنفسنا على الارتباط بها.

كما يستعبد أحدَنا مقدارُ عشرةِ ملايين دينار، يمكن أن تستعبده وتستهويه وتملك عليه شعوره قطعةُ حلوى لذيذة. يفقد الأدب أمام الناس، يفقد وقاره، انضباطه، يتعدّى، يمدّ يده من مكان لمكان ليصل لقطعة الحلوى الصغيرة، ملكته هذه القطعة. هذا ليس موجوداً فينا أساساً، الموجود فينا بقدر من أجل أن تمشي به الحياة في الحقيقة؛ لأنَّه بلا ميل للظهور، بلا ميل للملكية، بلا ميل للطعام تنتهي الحركة، تبقى الميول المادية ضرورية، والميول المعنوية تبقى ضرورية، حتى من النوع

الدنيوي، ولكن بالمقدار الذي يخدم النفس البشرية ولا يُخالف تزكيتها. السيطرة تكون لمَن؟ السيطرة للعقل.

لدينا أمران، قوّتان في قبال قوى أخرى، ذاتنا هي هذه، ذاتنا قدرة عقلية هادية نظرياً وعملياً، عقل نظري وعقل عملي، إنسانيتُنا قدرة عقلية، نظرية هادية، زائداً قدرة عقلية عملية هادية، هما قوتّان متناصرتان، ومعهما المَلَك المُرشِد الداعي إلى الخير، والنفسُ اللوّامة، ويوجد منهج الله عزَّ وجلّ العقدي التشريعي الأخلاقي، وصوتُ الأنبياء والمرسلين والوعّاظِ والمعلمين، هذا كلّه جيش في صالح تزكية النفس، يُستفاد منه ممن أراد أن يزكي نفسه، هذه قوى خير.

في قبال هذا الجيش جيش آخر، الشهوات والرغبات المُخالِفة لخطّ العقل، ولخطّ الدين، لذّاتُ أكلٍ، شُرب، زينة دنيوية، خيل، طائرات، قوّة، سلاح، جاه معنوي، مال مستطيل، حدائق، وما إلى ذلك، ومعه ميول ورغبات داخلية تدعو إلى هذا كلّه، ومع ذلك صوت الشيطان الرجيم، والنفس الأمّارة بالسوء.

جيشان، والنفسُ يمكن أن تسمع لصوت هذا الجيش، وأن تميل إلى هذه الجبهة، وأن تسمع لصوت الجيش الثاني وتميل

إلى تلك الجبهة، بما أُعطيَت من فهم للخير والشرّ، وبما أُقدِرت عليه من ناحية إرادية على أن تُقدِّم الخير على الشرّ أو بالعكس -يعني الوقوف مع جيش الخير، أو الوقوف مع جيش الشرّ- إمّا أن تقف مع إسرائيل والمُطبِّعين، أو تقف مع الإسلام والمقاومة الإسلامية، بيَدك.

قد تكون نفسي في يومٍ من الأيام أقرب إلى الجيش الثاني، ولكن بَعدُ لم أصل إلى الطريق المسدود، فيمكن بالمقاومة الكبيرة لنفسي، ومجاهدتي لنفسي أن يتغيّر موقعي، فأكون أميَل إلى جيش الإسلام والمقاومة، ويمكن العكس، حتى يصل الإنسان إلى نقطة نهائية يصعُب عليه جدّاً أن يتراجع، يصعُب عليه أن يُغيِّر موقعه.

[معنى تزكية النفس]:

أ.ما معنى التزكية؟

يعني أدعو بأن يُزكّيني الله، بأن يعينني الله على التزكية، لكن أَخَذَ الله عزَّ وجلّ على عباده أن يسعوا إلى تزكية أنفسهم.

ب.تزكية النفس مِن ماذا؟

مِمَّا يُعيقها عن النهوض، مِمَّا لا يسمح لها أن تنطلق بعيداً عن

طلب الكمال، أنْ تتحمّل المصاعب في الوصول إليه، أن تصبر على الصلاة، على الصوم، على مختلف الطاعات، ليتحقّق لها الكمال المنشود.

تزكيتُها من القذارات، القذارات ليست البَوْل -طبعاً إذا كان التساهل مع البول استخفافاً بأمر الله، عدم مبالاة بأمر الله، هذا الاستخفاف صار قذارة نفسية- كلّ ذنبٍ قذارة، ما الذنوب إلا قذارات، إلا أوساخاً، إلا ملوّثات للنفس.

اشتريتَ ثوباً أبيضَ جميلاً، قبل دقيقة اشتريته ولبسته، ماذا تفعل فيه؟ أتضع فيه قذارة مرحاض؟ تفقده جماله.. مُعطَّر، ترتاح إليه آناف الشامِّين، بعد أن تصل إليّ هذه القذارة ماذا أكون؟ يفرُّ منك الناس.

ولو انكشفت نفوسنا على واقعها على بعضنا البعض لفرَّ الناس الطيبون من الخبثاء.

الزوجة الجميلة فائقة الجمال، لو انكشفت لزوجها نفسُها القبيحة وتجسّد قبح نفسها له لفرَّ منها، وكذلك هي تفرُّ من زوجها لو رأت منه واقع نفسه السيء القبيح الأسود الكريه المُخيف.

[فلاح النفس وخيبتها]:

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾..

تريد فلاحاً؟ نجاحاً حقيقياً ليس إدّعائياً؟ فلاحاً تبقى معك دُنياك وآخرتك، ولا تُسْلَبه؛ زَكِّ نَفْسَك، طَهِّرها من الذنوب، من الآثام، من النيّات السوداء، من كلّ قبيحٍ من القبائح.

هذا هو ضمان الله عزّ وجلّ، الآية تُحدِّد المصير **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾**.

تبحث عن قصور، عن آمال دنيوية عريضة، وعن تجارات ماديّة كبيرة، إبحث عمّا يُصلِحُك، ولكن لا تتوقّع من أيّ شيءٍ يعظُم في نظرك من عطاءات هذه الدنيا أنّه الفلاح.

القصر الجميل، أجمل وأفخم قصر، أفخم حدائق، أَنْظَر الحدائق والبساتين وما إلى ذلك، فيها جمال، هذا الجمال جمالٌ خارجي عن ذاتك، إنْ لم ترَ نفسك أجمل منه فكيف تقنع بذلك؟

ذاك علاقتُك معه علاقة خارجية ومؤقتة، علاقتُك بالقصر والحقْل وإلى آخره علاقة خارجية، جماله غير جمالك، ذاك جمال الحديقة وليس جمالي أنا، وذاك جمال القصر وليس

جمالي، فإذا كنتُ قبيحاً في داخلي كلَّ القُبح، وأنا الداخل ولست الخارج، حقيقتي الكبرى هو الداخل، فيجب أن لا يُعوِّض عن قُبحي الداخلي أن أملك بستاناً جميلاً، أو قصراً جليلا.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ فقط. إذا بقيت أنفسنا قذرة، وسخة، قبيحة، وننتقل للآخرة بهذه النفوس القبيحة، فسنبقى قِباحاً.

وإذا كُنت اليوم قد اخطيء النظر وأغشُّ، وأقتنع بجمال قصري عن جمال نفسي، وبجمال أشيائي عن جمالي، غداً ومع لحظة الموت فلا شيء من هذا الخطأ، لا يبقى هذا الخطأ، عندئذٍ ينال كلّ شيءٍ يسقط في النفس، ولا يبقى نظر النفس إليها إلا من خلال جمالها الذاتي وقُبحها الذاتي فقط.

الملوك والرؤساء وما إلى ذلك، انتهت اللّذة لكلّ جمالٍ آخر كانوا يقتاتون عليه في حياتهم، انتهت العلاقة، سيبقى هو ذاته، يبقى طوال حياة البرزخ هو وقُبح ذاته، أو جمال ذاته، وفي الآخرة في النار يبقى هو وقُبح ذاته، وفي الجنة يبقى هو وجمال ذاته؛ لا تمرُّ عليه لحظة إلا وهو يرى جمال الذات، ومَن في النار لا تمرُّ عليه لحظة إلا وهو يرى قُبح الذات، وفي هذا نارٌ كبيرة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾..

أخفى ما فيها من جمال. جاء جميلاً، جاء عارفاً بالله، جاء وكلّه استعداد لتقوى الله، الإستلذاذ بذكر الله، والافتخار بمعرفة الله، هو في فطرته يحملُ قفزةً من جمال الله عزَّ وجلّ، نفخةَ الروح من الله عزِّ وجلّ. هذا لميْله لجيش الكفر والنفاق في النفس، والضلال والباطل وهذا بميْله التدريجي يدسُّ هذا الرصيد الجمالي في الأرض.

عندما تدسُّ الشيء الجميل في الأرض، لؤلؤة، جوهرة دسستَها في الأرض، هل ترى شيئاً من جمالها؟ طبعاً لا تبقى ترى شيئاً من جمالها. الوردة الجميلة عندما تدسّها في الأرض وتغطّيها بالتراب هل ترى لها من جمال وتشمّ لها من ريح طيّب؟ لا.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾..

يعني هو يدسُّها في الأرض، في ظُلمات الأرض، في أعماق الأرض، هذه الأرض أرضُ الظُلمة، أرض الضلال، أرض الفَقْد.

يُجري التصفية للمكوّنات الجميلة لنفسه، يجري تصفية معنوية، هذا الذي يجري تصفية معنوية لذاته الجميلة، لما في ذاته من جمال، يبقى مُفلحاً أو خائباً؟ انقطع عنه طريق الفلاح،

وبَقِيَ مستسلماً للمصير المحتوم من الفشل والخيبة والسقوط والعذاب والشقاء.

هذا يكفينا من القرآن كلّه، الوقوف على هذا المقطع الموجز من آيات الله، وهو قَسَمُ الله عزَّ وجلّ: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾.

معرفة النفس من خلال كلمات أمير المؤمنين عليه السلام

وقفةٌ عند كلماتٍ نيّرات من كلمات حكيم الإسلام الأوّل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، في موضوع النفس وجهادها.

[تمهيد: ضرورة معرفة النفس لإصلاحها].

إذا كان الهدفُ أنْ نُجاهد النفس من أجل أن نُصلحها، وأن نبلغ بها المبلغ الذي يرضاه الله عزَّ وجلّ، وأنْ نستقيم بها على طريق جنّة الخُلد، وأنْ نبحث لها عن الراحة في الدنيا -الراحة الداخلية- الطمأنينة في الدنيا والطمأنينة في الآخرة، والنفس موضوعٌ شائكٌ غامض، لا سبيل لمعرفته إلا بالاستعانة بدين الله عزَّ وجلّ واللجأ إلى توفيقه.

والنفسُ لا يُمكن أن نُصلحها بلا معرفتها.

أبسط موضوع في الحياة الدنيا حتّى تتعامل معه التعامل

السليم، وحتّى تستفيد منه لابّد لك من معرفته، وكل الدنيا في تقدمها في أيّ جهةٍ من الجهات تتّخذُ العلم بالأشياء مقدمةً لإصلاحها.

سَبَق أنّ تعاملنا مع التراب، مع معادن الأرض، مع مخلوقاتها، مع كلّ ما فيها؛ ولكي يكون التعامل سديداً ونافعاً لابّد لنا في ذلك من التعرّف الدقيق على الأشياء، ولا إتقان للعمل إلا بمقدّمةِ إتقان العلم بما نتعامل معه.

[من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في معرفة النفسِ]:

[«أفضل المعرفة معرفة الإنسان نفسه»]:

أمير المؤمنين عليه السلام يلتفتُ إلى هذا كلّ الالتفات، وليس أولى منه بالالتفات إلى ما هو الصحيح بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

من كلماته في هذا المجال: «**أفضل المعرفة معرفة الإنسان نفسه**»[1].

من المُهمّ أن تتعرّف على بيئتك الماديّة والمعنوية، حتى تنجح في التعامل مع هذه البيئة، وإلا كنت غريباً عليها، وهي غريبة عليك، وجهلت التعامل معها، التعامل الصحيح.

---

١. غرر الحكم، ج١، ص١٨٩.

ما من أكلٍ، ما من شربٍ، ما من دواءٍ، ما من شيءٍ نحتاجه في هذه الحياة، ونحتاج إلى التعامل معه، إلا وكان لابدَّ لنا من التعرّف على دقائق وجوده، على تركيبته، على آثاره، منافعه، مضارّه، إلى آخره.

لماذا تكون المعرفة بالنفس أفضل معرفة؟

لأنّك لو عرفتَ كلّ أشياء الحياة، كلّ ما حولك من هذا الكون، وبلغت معرفتك بهذه الأشياء بالغ الدقّة، أنتَ، أنا لو عرفنا هذه الأشياء وكان أحدنا جاهلاً بنفسه، لكانت معرفته بغيره ولا شكّ أنَّ معرفتنا بالغير أقلُّ قيمةً من معرفتنا بالنفس، وأنّ فساد النفس أكبر ضرراً علينا من فساد الشيء الآخر.

تتعرّف على فساد مطعمك أو صلاحه مهمٌّ جدّاً لصحتك البدنية، ولكن تبقى صحة البدن على أهميتها دون صحة أصل النفس وأصل الذات، وقد سَبَق القول والبيان بأنّ نفس الإنسان هي هو، حينما نقول نفسُ الإنسان أيْ الإنسان، وما الإنسان إلاّ نفسه، فجهلي بنفسي يعني جهلي بذاتي، جهلي بكينونتي، جهلي بما هو تركيبي.

معرفتي بنفسي ماذا تعني؟

كلٌّ مِنّا أصْلٌ ومُكتسَب.

أصلُنا فطرتنا بما فيها من استعدادٍ للخير واستعدادٍ للشرّ. أصل كينونتنا، كنهنا هذا العقل، وراءه هذه الروح التي تعني العقل، وتعني القلب، وتعني الإرادة، وتعني كلّ شيءٍ نابضٍ بالحياة المعنوية في وجودنا.

أنا أجهل هذا الكمّ كلّه. أجهل فطرتي، أجهل كينونتي، تركيبي الأصل، فأصل الروح من نفسي.

يعني أنا فيَّ روح، وأجهل أنّي فيّ روحٌ تمتاز عن روح الحيوان، تمتاز عن الروح الناميّة المتحركة على المستوى المادي. للحشرات روح، للحيوان روح، للنبات روح، لي روحٌ. حين أجهل الفارق بين روحي وبين روح الحشرات، بين روح النبات، بين روح أيّ حيوان؛ كنتُ قد جهلت نفسي، فيأتي تعاملي مع نفسي كتعاملي مع الحشرة، أتعامل مع نفسي تعاملي مع الحيوان الهابط القدر.

للحيوان مستواه ووظائفه، مستوى الحيوان يُركَب ويُستغلّ ويُقاد ولا يملك إرادة تُقرِّر مصيره.

أنا عندما أكون الحيوان، لمّا أرى نفسي وكينونتي هي كينونة الحيوان فسأقبل تماماً أن أكون حيواناً، ماذا يتمنّى الحيوان أتمنّاه، ماذا يُثير الحيوان يُثيرني، ماذا يُرضي الحيوان يُرضيني، كما يُقاد الحيوان أُقاد، كما يُستخدم أُستخدم، هذا إذا فقدت معرفتي بنفسي. أنا أعرف كلّ شيء، أعرف الذرّة، أعرف معرفة بعيدة وكبيرة وغزيرة في الكيماويات، أعرف التغذية وما ينفع منه وما يضرّ، أعرف السياسة بدقّة، فلتفرض فيّ ذلك كلّه، أو فلأفرض فيك ذلك كلّه، لكن مع ذلك حين أكون قد جهلتُ نفسي ولا أعرفها، طبعاً لن أعطي لنفسي قيمتها، لن أعرف لها هدفها، لن أبلغ بها مبلغها، لن أرقى بها في الشعور على مستوى إحساس الحيوان بذاته، ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أفضلُ المعرفةِ معرفةُ الإنسانِ نفسَهُ**».

فإذا اهتممتَ -وكُلّنا هَمٌّ بهذا- بمعرفة الأشياء من حولك -ولَكَثيراً ما نهتمُّ بمعرفة الأشياء، وحتّى الأمور الفضولية التي لا تنفعنا-، فعلينا أن نُعيد التفكير، ونمتلك التفكير الدقيق في أن نُعطي الاهتمام الأوّل في طلب المعرفة بمعرفة أنفسنا، معرفة الإنسان بما هو إنسان، ومعرفة ذاتي بما أنّي ذاتٌ مستقلّة لها مصيرها، لها حاضرها، الذي له خصوصياته.

[«أفضل الحكمة معرفة الإنسان نفسه ووقوفه عند قدره»]:

يقول عليه السلام في الكلمات المنقولة عنه: «**أفضلُ الحكمةِ معرفةُ الإنسانِ نفسَهُ ووقوفُه عندَ قدرِهِ**».

تقدَّم القول بأنّ النفس أصلٌ ومكتسب، الأصل الفطرة، الروح، بما تعني الروح من كنزٍ كبير، ومن قابلياتٍ عظمى، ومن مستوىً مؤهّل إلى أن يتحوّل هذا الإنسان إلى كتلة إشعاع، وإلى شعورٍ غامرٍ بالقوّة وبالثقة وبالطمأنينة وبالجمال.

الروح تُعطي الإنسان هذا الاستعداد كلّه، هذا جانبٌ مهمٌّ جداً.

لكن هناك مكتسبات، ماذا فعلتُ بنفسي؟

أتطوّرتُ بالنفس على هذا الخطِّ، على خطِّ الروح المهديّة الموهوبة من الله أم خالفتها كثيراً؟

كلّ مَكسَب إيجابي أو سلبي في مواقفي العمليّة والشعورية وما إلى ذلك، يترك أثره الإيجابي أو السلبي في ذاتي، فيأتي أحدُنا بقابليةٍ كبرى في هذه الحياة من موهبة الله عزَّ وجلّ؛ ذكاءً، صفاءً، وراثةً، خَلْقةً، وكما هو ذلك في الروح هو في البدن أيضاً، نأتي بأبدان مختلفة، قابليات مختلفة، تربية أهلنا لنا، وتربيتنا لأنفسنا قد تُعطي زيادة ونموّاً واشتداداً في قابليات الخير، في

استعدادات السموّ، وقد تهبط.

وكما عليَّ أن أدرس ذاتي في أصلها، عليَّ أن أدرس ذاتي فيما صارت إليه من خلال تربيتي، أدرس المسؤولين عن تربيتهم لي، عن البيئة التي ربّتني، آثار تربيتي لنفسي واستجابتي لهذا النوع من التربية، أو لذلك النوع من التربية، فالعين الفاحصة والمُدقِّقة عينُ العقل والتفكير؛ عليها أن تتوجه لهاتين الجهتين معاً، جهة أصل الذات وما حَدَث لها من تغيُّر، ومن جهة المُكتسب، وما حصّلتُه بإرادتي وبمواقفي الإرادية من إيجابٍ وسلب، يُضاف كلٌّ منهما إلى الذات ويؤثّر عليها.

أفضل الحكمة أن لا أبحث عن الرياضيات، -والبحثُ عن الرياضيات مُهمّ- أن لا أبحث عن أمورٍ مهمّةٍ جدّاً على أهميتها الكبيرة، أفضلُ الحكمة أن أبدأ بدراسة ذاتي، والتعرُّف على ذاتي لما سَبَق بأنّ معرفة الغير تأتي في الدرجة الثانوية من ناحية النفع والضرر بالنسبة لمعرفة الذات، والخسارة التي تحلُّ بالذات لا توازيها خسارة، والربحُ الذي تناله الذات لا يوازيه ربحٌ آخر، فلذلك يكون «**أفضل الحكمة معرفة الإنسان نفسه**» -ليس معرفتي نفسي؛ يعني أنّ عيسى أحمد قاسم، من البحرين من الدرّاز[1] من الحيّ

١. قرية من قرى الساحل الشمالي للبحرين وهي قرية سماحة الشيخ ومسقط رأسه.

الفلاني، أصدقاؤه فلان وفلان، هذه معرفة سطحية- وإنما معرفة كُنه الذات، واقع الذات، ما في هذه الذات من سلبٍ وإيجاب.

[«غايةُ المعرفةِ أن يعرفَ المرءُ نفسَهُ»[1]]:

غاية الشيء: قِمَّته، أعلاه.

المعرفة درجات تتفاوت في أهميّتها، هناك معرفة لا تكاد تنفع، ومعرفة بالغة النفع، ولكن أيّ معرفةٍ أكبر؟ وهي الغاية التي تنتهي إليها معرفة أشياء الحياة، ما في الأرض وما في السماء من دون الله تبارك وتعالى؛ هي معرفة النفس.

طبعاً معرفتك لولدك مهمّة، لزوجك مهمّة، لصديقك مهمّة، إلى آخره، لكن غاية المعرفة أن يعرف المرءُ نفسَه.

[«مَن عرفَ نفسَهُ عرفَ ربَّهُ»]:

تأتي هذه الكلمة منه عليه السلام: «**مَن عرفَ نفسَهُ عرفَ ربَّهُ**»[2].

إذا عرفتُ الأرض سأعرفُ ربّي، إذا عرفتُ أشياء السماء سأعرف ربّي، إذا عرفتُ حبّة الرمل سأعرف ربّي، إذا عرفت تكوين الحشرة سأعرف ربّي، وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنّه واحد، لكن لا معرفة ترقى بك إلى معرفة ربّك تبارك وتعالى

١. غرر الحكم، ج١، ص٤٦٩.
٢. بحار الأنوار، ج٩٢، ص٤٥٢.

كمعرفتك بنفسك.

عَالَم كبير غامض مليء بالأسرار، بالآيات، ونفسك أقرب ، وهي الشيء الذي لا تستطيع أن تُنكره، هناك نظرة سفسطائية تجعل صاحبها يُنكر كلّ شيءٍ حوله، هذه شمس يقول لك أنا أرى صورة الشمس، أمّا هناك شمس حقيقة أو لا؟ لا أُسلِّم، لا أجزم. -شُكّاك يشكّون في كلّ شيء، ليس واحد زائدَ واحد يساوي إثنين- لا أجزم أن هناك شمساً!

أجهل الجهل أن يُنكر وجود نفسه، وإذا أنكر وجود الشمس، وكنتُ أملك أنْ أُسلِّط عليه الشمس تماماً وأحرقه بها، فسيضطر إلى الاعتراف.

إذا أنكر وجوده وضربته ضربةً مؤلمة شديدة سيصرخ، ويذهب إلى المحكمة، فقل له أنت غير موجود فَلِمَ أضربك لأنّكَ لاتقرُّ بوجودك.

على كلِّ حال ليس أقرب لذات الإنسان من ذاته، فإذا جَهِل ذاته كان أقرب إلى جَهْل أيّ شيءٍ آخر. إذا أنكر ذاته كان أسهل عليه أن يُنكر أي شيءٍ آخر، فلا يعترف بشيءٍ من خلق الله كلّه.

«مَن عرف نفسه عرف ربّه»..

أنا موجود، وإذا كنتُ سليم العقل فوجودي يتناقض مع عدمي، لا أستطيع أن أقول أنا موجودٌ وأنا معدوم؛ حيث يتناقض أن أكون موجوداً مع أن أكون عدماً. فتأتي بديهيّة جدّاً: العدمُ لا يُوجِد العدم. العدم لا يملك أن يُوجِد نفسه فضلاً عن أن يوجد غيره، فلابدَّ من مُوجِدٍ موجود، هذا الموجود الذي أوجدني مثلي من الممكنات؟ حكمه حكمي؟ إذا كان مثلي ممكناً من الممكنات حتّى لو فاقني في درجة القوّة وما إلى ذلك، لكنّه ممكن، يعني أيّ شيءٍ عنده ليس من عنده، أي شيءٍ عنده ليس عنده، يصلح لك أن تقول الذي عندي ليس عندي، لحظة حياتي هذه ليست عندي، لأنّها تُعطَى لي، هي بيد غيري، بصري بيد غيري، إلى آخره.

من عرف نفسه لابدَّ أن يعرف ربّه تبارك وتعالى، يعرفه وجوداً حيّاً، قادراً، مالكاً غير مملوك، مريداً، قيّوماً، وإلا لما كان موجِد الموجودات والتي تكون به الموجودات، هذا ليس لوجوده سببٌ من خارجه حتى يفنى بفقد موجده، وحتى يفنى بإرادة مُوجِده، إرادة عدمه، هذا غنيٌّ بذاته لذاته تبارك وتعالى.

«مَن عرف نفسه جَلَّ أمرُهُ»[1]:

هناك أقوى منه بدناً، أغنى منه مالاً، أنفذُ منه كلمة، يملكون أن يحزّوا رقبته بسهولة، هناك من لا يساوي أمام طوله وعرضه شيئاً، إلى آخره؛ لكنّه لا يستعير وزنه في نفسه من الأحجام والأوزان الماديّة، ولا يكتسب معنوياته من الآخرين، وتأتيه كلمة المدح من أكبر مخلوق، لكن يعرف أنّ هذه الكلمة ليست مَحلَّ رضا الخالق، أفضل مخلوق، إفرض -حاشا رسول الله صلى الله عليه وآله- أن يقول كلمة ثناءٍ لعبد تبرُّعاً من عنده، إلا بمعرفةٍ من الله عزَّ وجلّ، لكن فرض المُحال ليس مُحالاً، فَرَضنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مَدَح فلاناً لكنه ليس مدحاً صادراً من الله عزَّ وجلّ -فرض كاذب لكن على مستوى الفرض- هذا الإنسان لا يغترُّ بكلمة رسول الله بما هو محمد بن عبدالله، وليس بما هو رسول الله، لا يكتسب منها معنى، لا يكتسب معنىً إلا من كلمةٍ ترجع إلى الله عزَّ وجلّ، ولذلك لا يهتمّ لو امتدحه عشرة آلاف، عشرون ألفاً، مائة ألف، مليون.

أبوذر -رضي الله عنه- يَسمع كلمة من أمير المؤمنين عليه السلام فيبكي، يسمع كلمة ثناء من أمير المؤمنين فيبكي. لأنّه يعلم أنّها

١. غرر الحكم، ج١، ص٥٩١.

كلمة صادرة عن رضا الله تبارك وتعالى.

مثلاً أنت الآن مررتَ على طفل وأنت فقيه كبير، سياسي كبير، مجاهد كبير -الذي تريده خُذه-، مررت على طفل فقال عنك «إنك رجلٌ طيّب»، «فلان عالِم»، يُحرّكك هذا الشيء -كلمة الطفل-؟ تملك وزناً في نفسك؟ إذا ملكت هذه الكلمة في نفسي فأنا صغير، جدّاً صغير.

كلمات العباد الذين لا يملكون شيئاً -كلمات الذمّ والمدح- في نَفْسٍ كنفس رسول الله صلى الله عليه وآله، أمير المؤمنين عليه السلام، في نفس تلميذٍ من تلامذتهم الصادقين، سلمان المحمدي، أبي ذر، المقداد، مالك الأشتر، إلى آخره. هل تملك شيئاً؟

يشتم مالك الأشتر أو يهزأ به أو ما إلى ذلك، فيذهب يُصلّي؛ ليغفر الله له، تأثراً ورحمة بذلك المعتدي المسكين.

فهنا «**مَن عرف نفسه جَلَّ أمرُهُ**».

كلمة من أكبر الملوك، أحدهم يقال له الضابط الفلاني مغتاظ مِنك، أو يتكلّم عنك بكلمة سوء يموت، جُندي يرى عزّه من ضابطه، وقيمته ومعنوياته يأخذها من كلمة ضابط.

رجل كبير مُلقى في بيته، بحّار، حمّال، شابّ، يقولون له

اسمع عن بايدن[1] وشهرته وملوكيته، يقولون له سمع عنك بايدن ويقول انت رجل طيّب، هذا يهزأ و يضحك.

لكن إذا رأى أحدٌ في المنام أنّ العباس عليه السلام قال فيه بأنه رجل طيب ، سيطير من الفرحة، هذا جَلَّ أمره، أو لم يَجلّ أمره؟ هزّته كلمة العباس بما هي كلمة يتوقع أنَّ هذا الحلم صادق وما إلى ذلك أو لا؟

فكلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَن عرفَ نفسَه جلَّ أمرُهُ**».

ألا تريد الثقة بالنفس؟ ألا تريد أن لا تهزّك كلمات الآخرين؟ لا تلهث وراء المدح والثناء؟ لا تجزع من قوْلة ظالم بذمّك؟.. إعرف نفسك، تعرف نفسك بماذا؟ بأنّك الإنسان الذي أكرمه الله، الإنسان الذي يُجلُّ من قربه إلى الله، بتقرّبه إلى الله، بعبوديته إلى الله عزَّ وجلّ. إعرف نفسك هكذا.

وإذا ضاق صدر ذاك المؤمن، وكَثُر الكلام عليه ماذا يفعل؟ ذهب يصلّي ركعتين، ذهب يقرأ قرآناً، يغسل أدران النفس ويصلح معنوياته.

---

١. رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

جهل النفس

معرفة النفس ربحٌ. جَهْل النفس خسارة.

إذا كان ذاك أكبر ربح، فهذا أكبر خسارة.

ماذا يعني جهل النفس؟

قلنا مكتسبات، ومواهب أصليّة. الذات الأصل والذات المكتسبة. يعرف طاقاته، يعرف هدفه، الذات ماذا تعني؟ الذات الإنسانية جوهرة أو فَحْمَة؟ هادفة أو غير هادفة؟ هدفُها يساوي الدنيا أو لا يساوي شيئاً؟ هدفها يستأهل أن تسجد له الدنيا وأن تذوب أمام قيمته الدنيا أو لا قيمة له؟ هدفها يُباع بالقصور، يُباع بالثروات، يُباع بالجاه، يُباع بالسلطنة، بموقع ديني كبير اسمه ولاية الفقيه، يُباع بشيءٍ من هذا أو لا يباع بشيءٍ من هذا؟

تعرف نفسك يعني تعرف هذه الأشياء. -إذا لم تكتشف

طاقات الطفل الذي عندنا ذي الخمس سنوات، يصل عشر سنوات، خمس عشرة سنة، وأبوه لم يكتشف منه قابليّة متميّزة، وبيئته لم تكتشف منه قابليّة متميّزة، هذا أرض خام خصبة جدّاً جدّاً، ذو ملكات وقابليات كبيرة، لكن في بيئة جاهلة، وبيت جاهل، وفي ظلّ حكومات مهملة ومُعادية، هل تتوقع منه عطاءً كبيراً؟ لا يُتوقع منه عطاءً كبيراً. يمكن بحّار شاطر أو غير شاطر. تصدر منه كلمات ولكن ليست بمستوى كبير، يمكن يؤول أمره إلى زبّال. لم يكتشفه أحد.

الواحد في قرية من قرى البحرين الصغيرة المُهمَلة التي كلّها لا تساوي شيئاً في بعض الموازين الظالمة، المجحفة، يشتغل في الخارج، يتّفق أن يعمل في الخارج، فيكتشفه غربي في مصنع، ينصحه أن يذهب إلى الغرب، فإذا أراد الرجوع للبحرين فيما بعد يقول له لا ترجع إلى البحرين، ماذا تريد؟ أنت كنز.

فمعرفة الذات لنفسها، معرفة غيرها إلى نفسها ضروري جدّاً. فمعرفة الإنسان لنفسه في أصلها، في تكوينها، وهدفها، وطاقاتها، ومواهبها.

أين الطريق؟ ما هو الهدف الصحيح؟ وما هو الطريق لهذا

الهدف؟

أنا ضعيف، كنتُ بوزني هذا أو أكبر من هذا الوزن بمرّات ومرّات، بما أنا عليه من جهْل أو تغيّر جهلي إلى علم، إلى آخره، كلٌّ منّا ضعيف، رؤساؤنا، ملوكنا، كبراؤنا. كلنا ضعاف.

لابدَّ أن أبحث عن قوّة ذاتيّة تحميني وتغنيني، وأملكها وأملك القبضة عليها، ولا أحد يستطيع أن يسلبني إيّاها، لا أحد يستطيع أن يملك ذلك، لا عمري أمسكه، لا صحتي أمسكها، لا مالي، إلى آخره.

أين القوي؟

من معرفتي لصالح نفسي أن أعرف القويّ الأقوى، وأن أستمسك بالعروة الوثقى التي تربطني بأقوى قويّ.

مثلا: أنت في قرية، وكلهم فقراء، وهناك ثلاثة أغنياء، قرية مقطوعة عن غيرها، وأحد الأغنياء أكبر من الإثنين الآخرين، أغنى وأكرم وأصدق وأشفق، وأنت مضطر ترتبط بأحد الثلاثة، ترتبط بمن؟ عقلك يقول لك ارتبط بمن؟ طبعاً ترتبط بالأقوى، الأغنى، الأسخى، الأصدق، الأشفق. وإلا ارتباطك بذاك يُغضب عليك، هذا مشكل.

غَضَبُ الله لا يُقابله غضب، ورضاه لا يقابله رضا.

إعرف نفسك، اعرف ماذا تطلب، ماهو هدفك، ما يسعدك وما يشقيك؟ مَن يُسعدك مَن يُشقيك؟ بالارتباط بمن تكون الأقوى والأسعد والأبقى؟ هذا كلّه من معرفة النفس-.

أمير المؤمنين عليه السلام يُوصينا -كما هو القرآن الكريم، وكما هو رسول الله صلى الله عليه وآله، والأئمة المعصومون عليهم السلام جميعاً- بمعرفة النفس.

خسِر إنسانٌ وهو على إنسانيته يَزِنُ نفسه -في قدْره وهدفه، وما يُرضيه وما يُغضبه ويستفزّه- بحيوانٍ بهيم، تقوده قطعة حلوى كما يُقاد الخروف والتيس بقبضةٍ من الحشيش.

وَزْنُكَ إنسان، أنتَ إنسان، وبَلَغْت، ورَشُدتَ على حساب الناس، ثم تكون مثل ابن ثلاث سنوات، تقودك قطعة حلوى، وأقلّ من قطعة حلوى؟ فعلى الإنسان أن يعرف نفسه.

من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في جهل النفس:

[«أعظم الجهْل جَهْل الإنسان أمر نفسه»، «كفى بالمرء جهلاً أنْ يجهل الإنسان نفسه»]:

من كلماته عليه السلام: «**أعظم الجهْل جَهْل الإنسان أمر نفسه**»[١]، وهذا يُقابله «**أفضل المعرفة معرفة الإنسان نفسه**»[٢]، «**كفى بالمرء جهلًا أنْ يجهل نفسه**»[٣].

فلان فيلسوف، بروفيسور، مخترع، آينشتاين، يقول له أمير المؤمنين عليه السلام قف: «**كفى بالمرء جهلاً أنْ يجهل الإنسان نفسه**».

هذا الذي تمدحه كثيراً، يعرف نفسه أو لا؟ إذا لم يعرفها كفى به جهلاً، وهذا يُغطِّي كلّ علمه، ويُذهب بقيمة كلّ علمه في المآل.

[«مَن جَهِل نفسه أهملها»]:

أيضاً كلمة من كلماته عليه السلام: «**مَن جَهِل نفسه أهملها**»[٤].

بيتك تحته كنز كبير جداً، يشتري لك ألف بيت وأكثر، وأنت تجهل بهذا الكنز، يفيدك شيئاً؟ لا يفيدك.

أرضك خصبة كلّ الخصوبة، وأنت تتعارك على أرض بعيدة تريد أن تشتريها مع آخر يريد أن يشتريها، وهي قاحلة، «**مَن جَهِل نفسه أهملها**».

---

١. غرر الحكم، ج١، ص١٨٩.
٢. المصدر نفسه.
٣. المصدر نفسه، ص٥٢٠.
٤. المصدر نفسه، ص٥٨٣.

مجرّد جهلنا بقيمة النفس، وموقعها، يؤدي إلى إهمالها، وعدم إعطائها قيمتها التي منحها الله عزّ وجلّ لها وهو التكريم؛ حيث قال: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾[1]، قدرها عند الله أن أسجد ملائكته لهذا الإنسان، لجانبه الروحي.

[«لا تجهل نفسك، فإنّ الجاهل بمعرفة نفسه جاهلٌ بكلِّ شيء»[2]]:

عنه عليه السلام: «**لا تجهل نفسك، فإنّ الجاهل بمعرفة نفسه جاهلُ بكلِّ شيء**».

هذا يعرف الذرّة، يعرف كيماويات، يعرف كلّ شيء، علمه بالأشياء الأخرى في حكْم الجهْل، ما دام يجهل نفسه فهي في حكم الجهْل؛ لأنّ كلّ هذه العلوم مضيعة، ولا تُفيده يوم الحسرة، أو تقوده إلى النار لا تقوده إلى الجنة، كلّها معارف تقوده إلى النار في ظلّ الجهل بالنفس وقيمة النفس؛ لأنّ الجاهل بنفسه يقودها نحو الضلال والهلاك.

[«مَن لم يعرف نفسه بَعُدَ عن سبيل النجاة وخَبَطَ في الضلال والجهالات»]:

ويقولُ عليه السلام: «**مَن لم يعرف نفسه بَعُدَ عن سبيل النجاة وخَبَطَ**

---

١. سورة الإسراء: ٧٠.
٢. غرر الحكم، ج١، ص٧٥٥.

في الضلال والجهالات»[1] برغْم العلوم الكثيرة التي عنده.

الإنسانُ بقابلياتٍ كبيرة، ومواهبَ عظيمة، ولكن لهدفٍ صغير صغير.

التوفُّر على المواهب الكبرى، والقابليات رفيعة المستوى، إذا كان صاحبُها يتبنّى هدفاً صغيراً فهو صغير.

والإنسانُ -وإن كانت قابلياته مُتَدنيّة، ومستواه الاستعدادي للكمال ليس إلى الحدّ المطلوب- لو كان يتبنّى هدفاً صحيحاً سليماً يتناسب مع قابلياته، فإنّه في النتيجة سيكون أكبر بكثيرٍ من ذلك الإنسان المتوفّر على المواهب الكبرى من دون هدفٍ صحيح.

فلان ابنُ فلان يُولَدُ وكلُّه مواهب عظيمة، واستعدادات ضخمة، لكن حيث لا يهتدي الطريق، لا يهتدي الهدف، أو حيث يضلُّ الطريق إلى الهدف، بالنتيجة سيكون صغيراً، وحقيراً، ودونياً، وستكون مواهبه عليه وعلى مجتمعه خسارة، ولن تكون ربحاً ولا مكسباً له ولا لمجتمعه.

حين نواجه نفوسنا، ونريدُ أن نَصِلَ بها إلى الكمال، ينبغي أن نُجاهدَها، أن نقاومها من أجل أن تَصِلَ إلى أكبر حظٍّ يتناسب

١.المصدر نفسه، ص ٦٥٦.

مع استعداداتها الكبيرة؛ أوّلُ ما يواجهُنا هو أنْ نتعرّف على الهدف من هذه الحياة.

شخصٌ حين يُقَاسُ بالآخرين تكون قابليات كماله مائة في المائة، مَن دونه في قريته، مَن دونه في قِطره، مَن دونه في أمّته؛ كلّهم أدنى منه في قابلياتهم واستعداداتهم، كلٌّ من أولئك يستبصر هدفه، يعرف هدفه، ويعرف الطريق إلى الهدف، كلُّ واحدٍ من أولئك هو أكبر بكثيرٍ من هذا العظيم في قابلياته.

مقدمات تزكية النفس

[لمجاهدة النفس وتهذيبها أمران:

الأمر الأول: اختيار الهدف الصحيح]:

مَن يُحدِّدُ الهدف؟

أنا أحدِّدُ هدفي؟

هل الخيار مفتوح على اختيار الهدف؟

من ناحية إرادية -بغضّ النظر عن الموقف الإرادي أنّه موقفٌ خطأ أو موقفٌ صحيح، اتجهت الإرادة اتجاهاً مصيباً أو اتجاهاً مخطئاً -أنا أملكُ تحديدَ هدفي، فلْيَكُن هدف الحياة شيئاً معيّناً، ولأختار هدفاً دون ذلك الهدف، هذا أستطيعه، وكلٌّ مِنّا يستطيع أن يتبنّى الهدف الذي يروق له وتشتهيه نفسُه، ويميل إليه هواه.

لكن أن أخلق لي هدفاً سليماً، أن أتبنّى هدفاً من خلقي، وبنحتٍ من إرادتي، ويكونُ الهدف المصيب، هذا ليس محلّ اختيار، الهدف المُصيب للحياة واحد غير متعدِّد ولا مُتكَثِّر، إمّا أن يُصيبه الإنسان أو أن يُخطئه، ثمَّ قد أُصيب الهدف فيأتي بحث آخر، وهو أن أصيب الطريق إلى الهدف أو أن أخطئ الطريق إلى الهدف، هذا شيء ثاني.

الكوْن كلّه هادف، ولا شيء يمتلك هدفاً سليماً وفي صالحه في اتجاهٍ غير اتجاه ربّه تبارك وتعالى، لأنّ غير الله باطل، والهدفُ القائم على الباطل باطل، والهدف الباطل يعني ضياعاً، يعني عدماً، يعني لا شيء، يعني صِفراً، فلو أنَّ أيّ شيءٍ في الكوْن إتّجه في إتّجاه هدفٍ لا يلتقي مع الله، مع إرادة الله، مع التوجُّه إلى الله، مع الانشداد إلى الله عزَّ وجلّ؛ فهو هدفٌ خاطئ وهدف خاسر.

الإنسانُ كأيّ شيءٍ في هذا الكوْن، لابُدَّ أن يكون له هدف، وإلا كانت حياته ضياعاً.

دَعُونَا نفترض أنّي أصبحتُ صباحي، ولم يتبيَّن لي هدفٌ من حياتي في لحظة يقظتي ولا طوال يومي، لم أعرف لنفسي هدفاً، وتَكرَّرَ هذا منّي لمدة سنة، وصرتُ أخرجُ من البيت -أنا أعرف

أيَّ طريق أسلُك، ولكنني لا أعرف الهدف- فصرتُ أمشي بلا حساب هذا الشَهْر، وهذه السَنَة، لو استمرَّت سيرتي فيها على هذا المنوال، هل أخرج فيها بنتيجة؟ من الطبيعي لن أخرُج منها بنتيجة، كلُّ سيري ضياع، وكلُّ جُهدي ضياع، وكلُّ تصرُّفي ضياعٌ ما لم يتحدَّد لي الهدف، ولم يكُن هذا الهدف في الدرجة الثانية صحيحاً، أو اهتدَيتُ للهدف، والهدف الصحيح، ولكن لم أعرف الطريق!.

الإنسان يمكن أن تضيع حياتُه كُلُّها لو لم يتبيَّن له الهدف الصحيح، ولم يتبيّن له الطريق الصحيح لهذا الهدف.

الهدف هو الكمال..

عندي نَفْس، عندي ذات تحتاجُ إلى نقلة بعد نقلة بعد نقلة، مجموعُ هذه النقلات تَصِلُ بها إلى أعلى درجة من الكمال الذي يتناسب مع استعداداتها الإيجابية، هذا هو الهدف.

لديك نبتة صغيرة، ترعاها يوميّاً، وتُدرك أنّ لها هدفاً تُريد أن تصل بها إليه.

هذا الذي يزرع اللوزة، أو يزرع نواة الرطب، أو أيّ شيء يزرعه، يسقيه، يسمّده، يشذّبه، يُهذّبه، يرعى الحالات الجويّة بالنسبة

إليه، وما إلى ذلك، بهدف أن ينمو هذا بعد عشرين سنة، النموّ الذي يجعله يعطي الثمرة المطلوبة.

هذا أنت مع ما تغرس، هذا أنا مع ما أغرس، هذا أنا مع مَن أَلِد، وأنت مع مَن تَلِد، هذا أنا مع حيوان أشتريه صغيراً وأربيه، عندي هدف من تربيته، أُريد أن أبلغ به حدّ الكمال، وأعرف الطريق إلى كمال هذا الحيوان، وأنّه متى سيُعطي الثمرة من وجوده، لكنّي قد أجهل هدفي!

أعرف هدفي من النبتة، من الولد، من الحيوان، من البيت الذي أبنيه، لكن أنسى هدفي من الحياة!-.

أنتَ يا عيسى[1] ما هدفُك؟ هذا هدفُك مِن الحيوان الذي ترعاه، مِن الولد الذي ترعاه، مِن النبتة التي ترعاها، ما هو هدفُك من وجودك؟ من حياتك؟ من يومك؟ من يوْمَيْك؟ من ثلاثة أيّامك؟ من كلّ أيام حياتك؟ قد لا أعرف! فأنا هُنا أُقَدِّر نفسي أكبر أو النبتة التي تحت رعايتي أكبر؟ أُقَدِّر نفسي أكبر أو الحيوان الذي أرعاه أكبر؟ تقديري للأشياء الأخرى التي لا أرضى لها إلا أن تكون هادفة على يدي، بينما أنا لا أرى لنفسي لزومَ الهادفيّة لذاتي! أنا أُحبُّ تلك الأشياء أكثر من حبّي لنفسي،

١. مخاطباً نفسه ﷺ.

أحبُّ لنفسي تلك الأشياء حيث أبلغُ بها غايتها، فتكون القضية إذن قضية أنا سآكُل الحيوان، أنا أيضاً سيأكلني من الحيوان، ستأكلني من الحشرات والديدان وما إلى ذلك.

أعزّائي..

إذا سألنا أنفسنا، ما هو الطريق لمجاهدة النفس؟

أوّل شيء أنْ أتبيَّن الهدف من حياتي؛ ليكون هو دليلي، وبوصلة الاتجاه الذي أتّجهه، والحاكم على عملي، على كلّ عملٍ من أعمالي، على مواقف السلب والإيجاب في حياتي، صداقاتي، علاقاتي، كلّ أموري أقيسها على هذا الهدف؛ فإذا كان هذا الهدف خطأً فكلّ شيءٍ منه سيأتي خطأً، إذا كان هذا الهدف ساقطاً فكلّ نشاط سأبذله، وكلّ جهد، وكل الإمكانات ستكون ساقطة القيمة وتافهةً جدّاً.

فأوّل نقطة هي (**تحديد الهدف**).

تحديد الهدف ليس بمعنى أن أضع يدي على أيّ هدف، وأقول اخترتُ هذا الهدف، لا، وإنَّما أدرسُ ما هو الهدف الذي يتعيَّنُ عليَّ؟ مُتعيَّنُ الهدف يأتي وراءه أسئلة: أنا مملوكٌ أو مالك؟ حياتي هي الحياة الدنيوية أو حياتي ستستمر للآخرة؟ ما قيمة

جزاء الدنيا وما قيمة جزاء الآخرة؟ هل لي قدرة تُغالب قدرة الله عزَّ وجلّ أو ليس لي قدرة تُغالب قدرة الله عزَّ وجلّ؟ ما هو أهون ضرراً عليّ، غضبة المَلِك أو غضبة الله؟ غضبة أبي أو غضبة الله؟ غضبة ذلك الإنسان التقيّ الورع الفقيه الكبير الذي نظر إليَّ نظرةً ليس فيها ظلمٌ ولكن فيها انخداع، وأعرف من نفسي بالضبط تماماً تماماً في هذا العمل الذي قمتُ به أنّه لوجه الله عزَّ وجلّ، وأنّي راجعتُ فيه دين الله المراجعة الشرعية المطلوبة منّي فوجدتُ منه هذا الموقف، لتصوُّر خاطئ عند أكبر شخصية إيمانية وعلمية أنّي أنا أخطأتُ كما ظَنَّ موسى عليه السلام في الخضر يومَ أنْ ثقبَ السفينة، يومَ أن قتل الغلام، لكن الخضر وهو يُكبر موسى عليه السلام أيّ إكبار، ويعرف قدره، هل كانت تهزُّه كلمة موسى عليه السلام؟ لا لم تكُن؛ لأنّه لا يرى ضرراً يلحق به كما هو الضرر الذي يلحق به بإغضاب الله عزَّ وجلّ، ولو رضيَ عنه كلّ المخلوقين.

أقول الهدف يعني أنْ تتقدَّمه هذه الأسئلة.

إذا كان هذا الهدف يخرُج بي عن طاعة الله، إذا كان هذا الهدف يُرضي عنّي كلّ المخلوقين ويُغضِب الله عزَّ وجلّ، أغنى به غنى الدنيا وأفتقر به فقر الآخرة، أسعد به سعادة الدنيا وأشقى به شقاء الآخرة، أحترق به بنار جهنّم، أسكُن هنا في القصور،

وأتوفَّر على أكبر اللذّات، وأعظم الشهرة، ولكن أتعذّب به في الآخرة، هل أتّخذه هدفاً في ظلّ هذا الواقع؟ من الطبيعي لا.. فأقيس هدفي من الحياة إلى مدى موافقته مع طاعة الله، تمشّيه مع إرادة الله، خضوعي به إلى مالكيّة الله عزَّ وجلّ، فالذي يحدِّد لي الهدف هو الله تبارك وتعالى.

عندما نقول اِختَر الهدف الصحيح، فالهدف الصحيح لا يمكن أن يأتي خارج نطاق مرضاة الله، طاعة الله، التعلُّق بالله عزَّ وجلّ، الثقة بالله، اختيار ما يختار، أنْ يختار العبدُ ما يختار الربّ تبارك وتعالى.

هذه الخطوة الأولى الرئيسة المحوريّة لتهذيب النفس، لتربية النفس، لمجاهدة النفس.

مجاهدة النفس تأتي في ظلّ تحديد ومعرفة هذا الهدف.

أنا أريدُ رضوان الله، هدفي رضوان الله، أنْ أُرضي الربّ وإنْ أغضبتُ العبد، أنْ أرضى عن الربّ، إذا وصلتُ إلى هذا وصلتُ إلى كلّ خير، وتوفّرت على الطمأنينة الكاملة، ولم تهزّ نفسي عواصف الحياة كلّها.

[الأمر الثاني: معرفة طريق الله معرفة يقينيّة:]

لكن بقي شيء؛ وهو أنْ أعرف الطريق إلى رضوان الله، والطريقُ إلى رضوان الله يسبقه التعرُّف على كمال الله، وعلى جلال الله، وجمال الله تبارك وتعالى، وعلى تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كلّ نقْص، فلا أُصَدِّق بكلمةٍ تأتي عن أيّ شريف، وأيّ عالم، وأيّ مُدعٍ للنبوة وهي تتهم الله عزَّ وجلّ بشيءٍ من النقص، شريعة فيها ظلم بَيِّن -معروف أنّه ظلم- لا يمكن أن أتخذ منها طريقاً إلى الله عزَّ وجلّ، مُسَيْلَمَة الكذّاب لو جاء بمليون حقّ ومعه باطل واحد، لا يمكن أن أصدّق بأنّه طريقٌ إلى الله عزَّ وجلّ.

فالطريق إلى الله نعرفُه طريق إلى الله برضوان الله عزَّ وجلّ، الطريق الذي يوصل إلى الله هو طريقٌ لابدَّ أن يكون مُتَنَزِّلاً عن الله عزَّ وجلَّ، جاء من عند الله، الطريقُ للوصول إلى رضوان الله لابدَّ أن يكون طريقاً جاء من عند الله عزِّ وجلّ، فعَلَيَّ أن أضمن على مستوى عقلي، وعلى مستوى فطرتي؛ أنّ هذا الطريق من عند الله، متى أضمن هذا؟ طبعاً بأن يأتي هذا الطريق عن إرسال رسول، وتقوم البيّنات على أنّه رسول، وتُثبت المعجزة أنّه رسول.

إنَّ الطريق لتهذيب النفس هو الإسلام العظيم.

فهناك أمران في المقدمة:

أنْ أتبنى الهدف الذي أعلم بأنّ فيه مرضاة الله.

وأنْ أبحث عن الطريق الذي أعلم تماماً ويقيناً بأنّه طريقٌ من الله.

-هذا يبقى المقياس-.

نأتي إلى النفس التي أريدُ أن أُربيها، أنْ أسلُك بها السلوك إلى الله، أنْ أتحوَّل بها من كلّ حيثيّة نقصٍ تُغضِب الله عزَّ وجلَّ، أستطيع أنْ أتخلَّص منها فيُوجب الله عز وجل عليّ أن أتخلّص منها، فلو بقيَت لأغضبت الله عزَّ وجلَّ، مَكّنْتُكَ من أن تُصلِح نفسك، أعطيتُك القدرة على إصلاح نفسك ولم تُصلِحها، فتأتي المحاسبة.

هذه النفس لابدَّ أن أدرسها الدراسة الدقيقة -كما سَبَق- التامّة الموضوعية وكأنّها ليست نفسي، بلا أيّ محاباة، وهذا لنجاتها، هذا لنجاة ذاتي ولفوْز ذاتي، ولن أكون مُحبّاً لذاتي حتى أدخُل في الدراسة الدقيقة لنفسي؛ لأتعرّف على كلّ عيوبها ونواقصها.

ما هو مقياسي فيّ، أَأَقول لنفسي فيكِ هذا العيْب؟

أنا أريد أن أقف على عيوب نفسي، مَن الذي يُحدِّد أنّ نفسي معيبة؟ أنا؟.. أنا عليَّ أن أكتشف الحقيقة، وأحتاجُ إلى كاشف يكشف لي عن واقع نفسي، وأنّها في هذا الموقف، في هذه الكلمة،

في هذه النيّة، في هذه العلاقة، في هذا التَرْك، في هذا الفعل، أنتِ على إصابة أو على خطأ؟ هي دنيويّة أو أخرويّة؟ هي إلهيّة أو شيطانيّة في هذا الموقف؟ هذا كيف أتعرّف عليه؟ قبل ذلك لابدَّ أن أتعرّف على الإسلام، أتعرّف على ما يُصحِّحه الإسلام وما يُبطله الإسلام، ما يرضى به وما لا يرضى به، أحتاج إلى علم، وعلى ضوء علمي بالإسلام وبكمال الله عزَّ وجلّ أحاسب، وأستكشفُ نفسي، هذا موافق لمرضاة الله، هذا موافق لشريعة الله، هذا الموقف فيكِ يا نفسُ، هذه الخاطرة، هذه النيّة، هذه النظرة إلى هذه المرأة أو تلك المرأة، هذه الكلمة التي ظاهرها حسن، أو ظاهرها قبيح هل هي ممّا ترضى به الشريعة، أو ممّا ترفضه الشريعة؟ لابدَّ أن أعرف الشريعة؛ حتى أُقايس مواقف النفس السلبية والإيجابية، وكلّ علاقاتها، وكلّ طرقاتها وأفعالها على ضوء ما أعرفه من الصحيح والخطأ في نظر شريعة الله تبارك وتعالى.

هذا هو المدخل إلى مجاهدة النفس، معرفة الهدف من الحياة في ضوء كمال الله، وخالقيّة الله، ومالكية الله لنا تبارك وتعالى، وكمال الله وجلاله وجماله، ومعرفة شريعته، ودراسة النفس في مختلف أحوالها على ضوء ما نعرفه من كمال الله عزَّ وجلَّ، ومن كمال دينه.

مراقبة النفس

[أمران يُراقبان في النفس: وهما أداء الواجبات واجتناب المحرّمات].

أمران يُراقبان في النفس:

هل هي قامت بالواجب الذي أوجبه الله؟ هل هي منتهيةٌ عن المعصية التي نهى الله عنها؟

قد تنجح النفس في ترك المعاصي، ولكنّها تُقصِّر في الواجبات، وقد تقوم النفس بالواجبات ولكنها ترتكب مع ذلك المعاصي.

فأنا وقفتُ على نفسي بالتتبُّع، في يوم واحد مثلاً، صرتُ أتتبّع نفسي من الصباح إلى المساء، وأنا أطالعها، كلّي التفات إليها، في كلّ ما يحدث منها في الأربع والعشرين ساعة، قد أجدُ منها

التزاماً بالصلاة، قد أجدُ تباطئاً عن أدائها، قد أجدُ من نفسي غِيبةً، قد أجدُ من نفسي عفّةً عن النَّيل من أعراض الناس، إلى آخره، يحسب ويحسب، يحسب في فكره، يحفظ هذا، أو في دفتر مثلاً يكتب كذا وكذا، فهنا كما أنّ معلوماته عن نفسه قد تُعطيه أنّه مرتكبٌ للمعاصي، وأنّه قائم بالواجبات، أو أنّه مقصّر في الواجبات، أو أنّه مرتكبٌ للمعاصي مُؤدٍّ للواجبات، فعليه أن يقوم بوظيفتين في مواجهة النفس:

أن يستنهض عوامل الذات الإيجابية المشجِّعة على الطاعة -وهي موجودة وكثيرة-، وهنا مُجاهدة من ناحية العجز عن حمل ثقل الواجب، وهذا يعينه عليه أن يفكر في جميل الله عليه، في مالكيّة الله له، في اطّلاع الله على كلّ غائبةٍ فيه، على كلّ عَلَنٍ وسرٍّ من عَلَنه وأسراره، على أنّه لن ينفعه أحدٌ على الإطلاق أمام غضبة الله عزَّ وجلّ، ولن يشفع له شافعٌ إلا بإذنه تبارك وتعالى، وأنه ملكٌ له لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً من دون إذن الله تبارك وتعالى، أنْ يوقف النفس ويُنزّل عليها هذه الأفكار البديهيّة في عقيدته ويُمليها عليها، يقول لها قومي قومي، تحرّكي، تحمّلي ثقل القيام للصلاة، الصوم، وما إلى ذلك، أنْ يدخل معها في تدريس، وفي معاتبة، في لوْم، تقريع، توبيخ، تذكير بالمصير،

وحَشْد من الدروس الفكرية والمواعظ النفسية، وفلان الذي لا يصوم ولا يصلي، الذي كان قد أهمل الصلاة، ها هو اليوم قد مات، ما مصيره يا نفس؟ ويدخل معها في حساب طويل، مَن تعصين يا نفس؟ تتأدبين أمام طفلُكِ إذا كان مُمَيِّزاً، فهل هذا يزني أمام طفله؟ لا يزني، هل يغتاب الآخرين أمام أناس شرفاء، ينكرون الغيبة كلَّ الإنكار؟، يستحي، يستحي حتّى من حُضّار أمامه، يا نفس تستحين من خلق الله ولا تستحين من الله؟ تهابين خلق الله ولا تهابين الله؟ أنتِ يا نفس في مجلسٍ من مجالس الملوك، في مجلسٍ من مجالس الوجهاء، تُخلِّين بالأدب الذي يرونه هم؟ لا تُخلِّين..

فمطلوب حتى نكتشف عيوبنا، مطلوب مراقبة النفس.

[إتجاهان في المراقبة:]

هناك اتجاهان في مراقبة النفس وهما:

مراقبة المُحاسِب.

ومراقبة المُحاسَب.

عليَّ أن أراقب (**المُحاسِب**)، والمُحاسِب هو الله عزَّ وجلّ، أراقبه كيف؟ أن أستحضر دائماً أنّه عالمٌ بي في لحظتي هذه

وفي كلّ لحظة، في أيّ ممارسة لي هو عالمٌ بي، قادرٌ على الأخذ بي، نَفَسي بيده، كلّ خيري بيده، كلّ شرّي بيده، لو أراد أن يُنزل عليّ العقوبة هذه اللحظة قبل الآخرة وقبل مضي خمس دقائق لأنزل عليّ عقوبته.

أنْ تُراقب قدرة الله، تُراقب حقّ الله، تراقب علم الله، تراقب جلال الله، تراقب جمال الله، تراقب مالكيّة الله، هذه مراقبة للمُحاسِب الذي سيحاسبك المطلّع عليك.

وتُراقب (**المُحاسَب**) وهي النّفسُ، يا نفسُ أنتِ ترتكبين القبيح، يُراقبها هل تأتي قبيحاً أو حسناً، تأتي بصدقٍ أو بكذب، تتخلّق بالأخلاق التي ترضي الله أو التي تغضب الله، هذا محلّ المراقبة لنفسي.

أنت قد تهتمُّ في يومٍ من الأيام بمراقبة ولدك -تقول أنا مهمل لولدي كثيراً ومقصّر في حقه، اليوم يتحمّل التوجيه، وسيفيد معه التوجيه، غداً لا ينفع معه التوجيه عندما تتركّز فيه العادات السيئة وما إلى ذلك- فتراقب ولدك، لكن ليست مراقبة عدوٍّ لعدوّه، بل مراقبة حبيب لحبيبه، من أجل إنقاذه ولتصحيح مساره، من أجل حاضره ومستقبله، فتراقبه وتُحصي عليه وتقدّم له دفترك في آخر

النهار، وتذكر له ماذا فَعَل، من الممكن أن تُسجِّل عليه الكثير، ومن الممكن أن تُسجِّل عليه القليل، الولد عزيز، وحبيب، وقطعة من الكبد، وصلاحُه يُفرح الأب ويُسرّه ويُنعش نفسيّة الأب، وفساده يُسيء إلى الأب ويؤلمه، ولكن نفسُك تبقى أعزّ عليك، يبقى صلاح نفسك طبعاً فيه ربحك الأكبر، فساد نفسي فيه خسارتي الأكبر، فجيعةٌ لي كلّ الفجيعة أن يفسُد ولدي، ولكن فجيعتي في فساد نفسي أكبر، وفرحي بصلاح ولدي كبير ومفخرة لي في داخلي، وأحمد الله على ذلك وأراه نعمةً كبرى عليّ ولكن لا أدري، هذا الخير العظيم الذي يفرح به الإنسان، لو كان له نفسه أيفرح أكثر أم لا؟ يفرحُ أكثربصلاح النفس.

أخذنا مثال مراقبة الولد، وهذه المراقبة من باب العَطْف والرحمة والشفقة والعناية وأداء الواجب، ألا تستحقُّ نفسي منّي هذا؟ إذا كان ولدي يستحقُّ منّي هذا، أليست نفسي أحقُّ بهذا منّي؟ وأن أستوقفها وأراقبها؟

وهذه ليست وظيفة يوم، هذه وظيفة عمر، كونها متعبة؛ لأنّها وظيفة عمر، ويمكن أن أستحي لو راقبتُ نفسي أسبوعاً واحداً المراقبة الدقيقة، وسجّلتُ فعلاً، وإنْ كنتُ حسن الظن بنفسي

إلى درجة مبالغاً فيها، حين أقف على النتيجة بعد أسبوع أستحي من نفسي، أكتشف أنّني مليءٌ بالعيوب، مليءٌ بالعيوب يا عيسى[١] وترى نفسك مَلَكاً.

ويُمكن هذا أن يكون سبباً للرجوع إلى الطريق الصحيح، وأقوى على نفسي وأخطائها.

بدأنا من الهدف، وتحديده تماماً، واتخاذه مقياساً، وهو ما يُتخذ في ضوء كمال الله عزَّ وجلّ، وكمال شريعته، والطريق إلى الالتزام بهذا الهدف، والتجاوب مع هذا الهدف الذي يحصل بمعرفة شريعة الله، والصواب والخطأ.

هذا عرفناه، وجئنا إلى أن نقيس النفس والمسؤولين عنها على ضوء الهدف، والطريق الذي بيّناه مما يوصل إلى الهدف، هذه النفس نُراقبها، نُحاول أن نستكشف كوامنها، وما تُحاول أن تُخفيه عنّا. بلى النفس تحاول أن تُخادع حتى صاحبها، فيُحسن الظنّ بها في موارد ليس له أن يُحسن الظنّ بها، هنا تأتي المراقبة، والمراقبة الصحيحة الدائمة الدقيقة العلميّة التي لا ظلم فيها للنفس ولا ميل لها.

إذا كان الانقسام الاجتماعي صعباً ومحلَّ معاناةٍ مُتعبة -وهو

١. مخاطباً نفسه ﷺ.

صحيح- وإذا كان الانقسام العائلي الأسري صعباً ومحلَّ معاناةٍ مُتعبة -وهو صحيح-؛ فإنّ انقسام النفس مع النفس، انقسام ذات النفس على نفسها هو أصعب وأصعب.

النفسُ عقلٌ، وركائز دينٍ فطري، وميول ماديّة وميول معنويّة، ورغبات وشهوات وطموحات دنيويّة، وهي قوىً غير متجانسةٍ في الاتجاه والتوجيه.

هذه القوى بينها صراع، وتعيش معركة، وإذا استمرّت حياة النفس على هذه المعركة وهذا الصراع، فحياتها حياة قلق، وحياة توزُّع داخلي أصعب من توزّع أعضاء الأُسرة واختلافهم ونزاعاتهم، وأصعب من حالة الانقسام في المجتمع.

هذه النفس لا يمكن أن تسعد وهي تعيش صراع القوى في داخلها، تعيش الصراع بين العقل والدوافع الماديّة، العقل والدوافع المعنوية، الدينيّة، الأخلاقيّة من جهة، والدوافع الماديّة، والشهوات والرغبات والطموحات الدنيويّة من جهة أخرى.

هذا يجذب النفس في اتجاه، وذاك يجذبها في الاتجاه الآخر، ولا هذا الجانب راضٍ عن ذلك الجانب، ولا ذلك الجانب براضٍ عن هذا الجانب.

هذا الشخص مُتعبٌ ليله ونهاره، وهو يعيش معركة الداخل، لا يمتلك لحظة إيمان بذاته مُجتمعة، وإنّما ذاته على افتراقٍ دائمٍ متعب، وتجاذبٍ وحرب، والإسلام يريدُ لنا ذواتاً مستقرّة، ذواتاً مطمئنّة، ذواتاً راضيّةً مرضيّة، فكيف لنا بهذا؟

نحنُ من جهة نَفْسٌ واحدة في مُركَّبٍ حكيم، مع اختلاف قواه في الاتجاه، إلاّ أنّه متكامل، وكلّ قوّةٍ من قواه محلّ حاجةٍ لهذه الذات واستمرارها وحفظ هويتها، وكلّ دافعٍ معنوي وكلّ طاقة معنوية في الذات هي محلّ حاجة لبلوغ هذه النفس هدفها الكبير ومقامها العالي.

وكلّ دافعٍ مادي من دوافع الذات، هو محلّ حاجةٍ لهذه الذات حتّى تبقى في هذه الحياة الدنيا.

أنت لا تستطيع أن تبقى بلا حبّ الحياة، لا تستطيع أن تبقى في هذه الحياة بلا حبّ المُلكية، بلا حبّ الظهور، بلا حبّ الجنس؛ لأنّه لا يمكن أن يستمرَّ النسل، إلى آخره، فليس من شيءٍ في تركيبة الإنسان وفي كينونيّته بفضول، ولا يمكن أن يكون فيه شيء من باب النافلة، كلّه ضروري، وكلّه لابُدّيٌّ؛ لحفظ هوية الإنسان وتميّزه، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى، للنفس تلك الأبعاد التي مرَّ ذكرها.

النفس اللّوّامة والنفس الأمّارة

وبلغة أخرى هناك نفسٌ أمّارةٌ بالسوء، وهي بُعدٌ من أبعاد ذاتنا، تقيُّنا وغير تقيِّنا. النفس اللوّامة لا تخلو منها نفس، ولا يخلو منها مركّب إنساني. من ضمن أضلاع مركّب الإنسان النفس اللوّامة، ومن بين أضلاعه النفس الأمّارة بالسوء، وعلى تقابلهما، وعلى مواجهتهما لبعضهما البعض، وأنّهما في خطّين مختلفين.

هذه النفس اللوّامة تُشقي هذا الإنسان بكثرة لومها، تُتعب هذا الإنسان بكثرة لومها، وتأنيبها وتقريعها، وأنت تحكم على ذاتك بالجلد، وأنت تجلد ذاتك، صعبٌ عليك جدّاً، وأنت توبّخ هذه الذات، وتحكم عليها بأنّها مُخطئة، وبأنّها غافلة، وبأنّها تسلك الطريق غير الصحيح، وبأنّها مهدّدةٌ بمصيرٍ سيءٍ جدّاً، هذه حياة شقاءٍ تواجهها النفسُ من هذه الطاقة الذاتيّة التي لها دور التأنيب والتوبيخ والتقريع والعقوبة -هي تعاقب- لا أكاد أرتكبُ

خطئاً إلا وقامت في وجهي لتؤنّبني، وتُخطّئُني، وتُسقط قدري في نفسي، وتحكم عليّ من داخلي بأنّي لستُ الإنسان السويّ، ولستُ الإنسان الذي عرف طريق سعادته، هذا متعِبٌ جدّاً.

ليلة واحدة من حياة الضمير وقيامه بدورٍ فعّال في التأنيب والتوبيخ على فعلٍ ارتكبه أحدُنا في نهاره، هذه ليلة شقاء.

لا يُعذّبُك أحدٌ من الخارج، إنّما عذابك من الداخل، ولا يتسِّع لك الأمر بأن تقول إنّي مظلوم؛ لأن غيري يحكم عليّ بالحقارة، هذا الحكم على نفسك بالحقارة من داخلك، وهذا صعب، وهذا التقريع، هذا التوبيخ، هذه التخطئة عن قناعة تامّة داخلية لا تُناقَش، قناعة وجدانيّة، أحكم على نفسي وجداناً بأنّي مخطئ، بأنّي مقصّر، بأنّي ظالم، بأنّي سلبتُ ذلك اليتيم لقمته، بأنّي تعدّيت على حدود الله الذي يجب شكره، إلى آخره، هذا حكمي الداخلي على نفسي، فهذا عذاب.

من جهة ثانية، كلّما أردتُ أن أقوم على قدمي، وأستقيم على الطريق، جاء دور النفس الأمّارة بالسوء، الشيطان يقفُ معها، وهي تقفُ مع الشيطان في وجه أيّ موقفٍ منّي أريدُ أن يكون موقفاً صحيحاً، أريدُ أن يكون موقفاً قويماً يرضى به ضميري على

الأقل، بإحساس هذا الضمير برضا ربّي عنّي تبارك وتعالى، هذا عدوّ، كلّما أردتُ أن أهتدي، كلّما أردتُ أن أستقيم، أن أكون مع إرادة الله عزَّ وجلّ جاء دور وسوسة النفس، وتسويل النفس، والأمر المشدَّد من النفس والمُلِحُّ والمتحايل والماكر، والظاهر بمظهر الصديق المُخلِص الوفيّ لتُضِلّني.

أنت دليلٌ لي من الخارج على الحقّ، ونفسي دليلي من الداخل على الباطل، تسمعُ الكلمة منك وأنت أعلم عالم وأنصح ناصح، وتحوّلِ هذه الكلمة في شعوري العميق إلى كلمة مُتعبة وضارّة وغير مُخلصة.

نزاع، صراع صعب شديد، والإنسان يشقى بهذا الصراع.

فلابدَّ من طريقٍ يستطيع أن يجمع القوّتين على خطٍّ واحدٍ، ويُصالح بينهما.

أريدُ -أحبّتي- أن أكون صديقاً لنفسي، وأريدُ لنفسي أن تكون صديقةً لي، وأمامي ثلاث طرق لهذا التصالح المريح، ولهذه الصداقة المريحة:

أنْ تخضع النفس اللوّامة وتُغلَبَ وتُسحق أمام النفس الأمّارة بالسوء، لتكون الحاكميّة كلّ الحاكميّة في داخل الذات للنفس

الأمّارة بالسوء، كما لو كان هناك حكومتان متضادّتان تماماً، إحداهما في قمّة العدل وأخرى في قمّة الظلم، إحداهما كلّها فساد، والأخرى كلّها صلاح، فيتنازعان على المجتمع، يتنازعان على مجتمعٍ واحد، أو يحكمان مجتمعاً واحداً، هل يمكن أن يسعد هذا المجتمع؟ طبيعي لا، من الممكن أن يستريح نوعاً من الاستراحة في ظلّ حكومةٍ متفرّدة، حكومة دكتاتورية من النفس اللوّامة أو من النفس الأمّارة بالسوء، وإنْ كانت النتيجة -نتيجة السعادة والشقاء- طبعاً مختلفة بين حكومة النفس الأمّارة بالسوء، وبين حكومة النفس اللوّامة.

الذي تحكمه حكومة الباطل في داخل نفسه، أو المجتمع الذي تحكمه حكومة الباطل، يمكن أن يعيش حياةً مريحةً خارجيّة من هذه الحيثيّة، أو تلك الحيثيّة، لكنّ حكومة الباطل لن تؤدي إلاّ للشقاء، وحكومة الحقّ لن تؤدي إلاّ إلى السعادة.

أقول، حتّى نستريح بعض الراحة، هذه الراحة لا يمكن أن تتمَّ في ظلّ الصراع المرير المستمرّ المحتدم بين النفس الأمّارة بالسوء والنفس اللوّامة، فاَختر أن تقضي على النفس اللوّامة، على دورها، يعني أن تطمر دينك، حاول أن تطمر ضميرك، أنْ تُجفِّف

منابع فطرتك -ولن تستطيع-، أنْ تقضي على صِلتك الروحيّة بالسماء، أنْ تخلُص إلى الأرض ومادياتها وشهواتها ورغباتها؛ لتكون نفساً شرّيرةً أمّارةً بالسوء فقط، أو حاول العكس، أن تقضي على دوافع الشرّ، وعلى مبيدات الحيويّة الروحيّة الكريمة في ذاتك، وأنْ ترتفع بكلّ إيجابياتك الفطريّة والمكتَسَبة، وتُبقي الصوت في داخلك، صوتها بلا معارضٍ من صوت النفس الأمّارة بالسوء، وحينئذٍ يمكن أن تجد الراحة.

المطلوب في الأخير أن ينتهي هذا الصراع، وأنْ تصنع نفسك مطمئنّة، الجولة كلّ الجولة الحياتيّة، جولتك في الحياة كلّها -يعني كلّ الحياة- هي أن تتخلّص من هذا الانقسام، وهو أن تصادق نفسك، ونفسك تصادقك، لكن لا أن تكون النفس الأمّارة بالسوء هي الحاكمة، وإلا فالنفس لن تكون مطمئنّة، بل ستصيرُ إلى العذاب وأشدّ العذاب.

فحتّى تنجح في دورك في هذه الحياة، وتُسجِّل نجاحاً أبديّاً لابُدّ أن تُنهي صراعك الداخلي، وأن تقضي على حالة الانقسام والتضادّ والتهافت والتناقض؛ بين معسكر الخير ومعسكر الشرّ اللذَيْن لا يفارقان الذات، وكلٌّ منهما له دوره، وله توجهه الخاص، والنزاع مستمرٌ بينهما.

النفس المطمئنّة

ومتى تحصل النفس المطمئنّة؟

حين يخفُت -عن قناعة- صوت النفس الأمّارة بالسوء، بل ينمحي، ولا يمتلكُ لي حديثاً، وإذا تحدّثَ لا أسمعُ له كلمة، ولا يتركُ أثراً في نفسي، ولا وزن له في تقييمي، يحصل ذلك إذا وصلت قيمة النفس الأمّارة بالسوء في دفعها، وجاذبيتها، وتسويلها، وأمرها بالسوء إلى هذه الدرجة. ولكن متى تصل إلى هذه الدرجة؟ بتسليمي لله، بثقتي بالله، بمعرفتي بالله، إذا عرفتُ الله، وعرفت جلال الله، وجمال الله، وكمال الله، ووجوب شكر الله، وشأن الله العظيم، وحقّ الله الذي لا يُقضَى، والجمال اللامتناهي لله عزَّ وجلّ، فطبعاً قيمة النفس الأمّارة تسقط، صوتها يخفت، هل أُصدِّقُ هذه النفس في قِبال كلمة الله؟ هل أقبلُ لها حكماً في قِبال حكم الله؟ هل أقبلُ لها إدّعاءً بنصح في قِبال نُصح الله؟

هل أقبلُ لها إدّعاءً بعلم في قِبال علم الله؟ لا، فحين أعرف الله أعرف نفسي، وأنّ نفسي الكريمة هي النفس اللوّامة، هي النفس المتمثِّلة في معسكر الخير، في الفطرة، أساسيّات الدين، في الخُلق الكريم، العقل النظري الفطري، العقل العملي الفطري، الشوق إلى الله تبارك وتعالى.

فالنفس المطمئنّة الاطمئنان الذي يجعلها عند لحظة الموت تُقدِّم الموت على الحياة -ليس أكبر من الحياة في نفس الإنسان إلاّ الله عزَّ وجلّ- لحظة الموت عند الإنسان المؤمن الذي أدّب نفسه بأدب الله، وصاغ نفسه على طريق مرضاة الله، هذه النفس وقد صارت مطمئنّةً بالسعادة في التعلُّق بالله عزِّ وجلّ، وفي الوفاء بوعد الله عزَّ وجلّ، وفي كرمه وقدرته، ورأفته ورحمته، هذه النفس حين تقفُ في اللحظة الأخيرة بين خيار الدنيا وخيار الآخرة، وتُخيَّر من مَلَك الموت في تلك اللحظة بين أن تبقى في الحياة التي عهدتها وعرفتها، وبين أن تنتقل إلى جوار الله، وأنت ترى رضوان الله، وأنت ترى جنّة الله، وأنت ترى رحمة الله، وأنت تُعاين جلال الله وجماله وكماله المعاينة القلبيّة، هل يمكن أن تقول أبقى مع أهلي لأنّهم أعزُّ عليّ؟ لا يبقى وزن لشيء في الدنيا أمام الشوق إلى الانتقال إلى رحمة الله ورضوانه.

هذه هي النفسُ المطمئنّة، أي ليس عندها تردُّد في أنّ الربح كلّ الربح هو في الارتباط بالله، هو في الانتقال إلى الله، في نيْل رضا الله عز وجل ، مطمئنّة أي ليس فيها تزلزل، هذه النفس لم يعُد فيها قلق، لا شيءَ من التزلزل، لا شيءَ من الشكّ، لم يعُد فيها أقلّ شيء من الريبة في أنّ مصيره سعيد أو شقيّ، في أنّ الجولة انتهت إلى خير أو إلى شرّ، حيث تأكّد الآن في هذه اللحظة بأنّه في لحظة خير، بأنّ جولته جولة رابحة، وأنْ لا تعب أمامه، حياة التعب والشقاء وَلّت وإنْ كانت حياة قصور، وإنْ كانت حياة ملك عريض، وإنْ كانت حياة جاهٍ كبير، إلاّ أنّ صاحبها يعرف أنّها مع ذلك هي حياة غير مطمئنّة، لا يطمئن إليها الإنسان، وليس في التمسّك بها تمسّكاً بالسعادة.

الحياة المطمئنّة متى تكون؟ عند معاينة أنّي قد كسبتُ الآخرة، قد كسبتُ رضوان الله تبارك وتعالى، والمؤمنون الحقّ الحقّ يَصِلون إلى هذه المعاينة عند موتهم.

هنا نتذكّر دائماً هذا المَثل وهو أنّهم «كأنّما رأوا الجنّة رأي العين»، وهُم أنصار سيّد الشهداء أبي عبدالله الحسين «عليه وعليهم السلام»، أولئك الذين هانت عليهم الدنيا كلّها، ألَديهم

أعزّاء مثلنا أو لا؟ أَلِبعضهم أملاك أو لا؟ أَلَهم موقع في عشيرتهم أو لا؟ أيُحبّون الحياة مثل ما يحبّها الآخرون أو لا؟ كلّ شيءٍ من هذا عندهم.

كيف تلذُّ حياة إبراهيم عليه السلام ونفسه وهو يُلقى بالمنجنيق إلى النار التي أشعلها نمرود؟ كيف تبقى النفس مستقرّة؟ هادئة؟ راضية؟ مطمئنّة؟ لا يسبّ الدين ويشتم المؤمنين ويبرأ من كلّ مؤمنٍ ومؤمنة؟ كيف رأى الجنّة رأي العين؟ رآها بقلبه كأنّما يراها بعينه، فلذلك هان عليه ذلك؟

هذه هي النفس المطمئنَّة.

بَحثُك كلّ بحثك في هذه الحياة إجعله عن هذه النتيجة، إجعل كلّ بحثك عن هذه النتيجة، إذا كانت في القصر فأطلُب القصر، إذا كان القصر عائقاً لها فازهد في القصر.

القصر، العمر الطويل، الجاه العريض، محبّة الناس لك، أيّ شيءٍ مما تشتهيه في هذه الدنيا، إنْ وجدتَ فيه هذه النتيجة -النفسُ المطمئنّة- فاطلُبه، ونتيجة النفس المطمئنّة معروفٌ طريقها عند المؤمنين الحقّ، عَرَفَ طريقها الأنبياء والرُسُل والأئمة الأطهار «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»، وعباد الله

الصالحون، طلبوها في سفك الدماء في سبيل الله عزَّ وجلّ، بَنَوا نفساً مطمئنّة على هذا الطريق، وعلى طريق الزُهد والمكافحة، وعلى طريق تفويت الفرص الدنيويّة العريضة، دنيا فيها رئاسة وزراء، فرصة رئاسة وزراء -واحد لا ينام ليلته فرحاً بشمّة وعد من هذا الشيء، وواحد يفرُّ فراره من الأسد من هذا الوعد، وبعضهم أظهر من نفسه بأنّه مجنون؛ ليفرِّ من القضاء، ويفرِّ من الوزارة، ويفرّ من الملوكيّة، معاوية الثاني ابن يزيد بن معاوية فرّ من الملوكيّة، الملوكيّة محلّ خوف، الملوكيّة فيها عذاب الله، فيها الشقاء الأبدي، فمطلوبنا الصحيح في هذه الحياة يجب أن يكون هو الوصول إلى النفس المطمئنّة.

كيف نزكي أنفسنا؟

[لتزكية النفس ينبغي العمل على جانبينِ]:

مجاهدتنا تتمثل في جانبين:

رفع الإيجابيات التي تتمتع بها النفس، إيجابياتها الفطرية، وإيجابياتها المكتسبة.

في نفس كلٍّ منّا إيجابيات فطريّة، وإيجابيات مكتسبة. المجاهدات ماذا تعني؟ أن أتعب في رفع مستوى هذه الإيجابيات والحسنات، والتي تتمثّل في القربات والخطوات التي تقرّبني إلى الله عزَّ وجلّ.

الجانب الآخر للمجاهدة؛ هو التخلُّص من النواقص والسلبيات، ومعاصي الله تبارك وتعالى.

فالعمل على هذين الجانبين حتى تكمل النفس، وحتى

تكون مؤهَّلة للسعادة الأبديّة.

دعونا نمرّ بيوم من الأيام التي يجاهد فيها الإنسان نفسه، دعونا نسمّيه يوم مجاهدة، عزمُك غداً أن تجعله يوم مجاهدةٍ للنفس، طبعاً والمجاهدة للنفس لا يكفيها يوم، ولا ثلاثون يوماً، كلُّ العمر في أيامه يجب أن تكون أيام مجاهدة، ولكن دعونا نأخذ يوماً واحداً ونقول هذا يوم مجاهدة، وقد يستمرّ عليه امرؤٌ أياماً، اسبوعاً، شهراً، فإذا وفّقه الله استمرّ طوال الحياة.

من أين يبتدئ؟

لو عرف طريق الطاعة، فيكون أساساً قد عرف طريق المعصية -ما يرضي الله، وما يغضبه-، وجعل ذلك هو الدليل لبناء النفس، جعل الدليل لبناء النفس الاقتراب مما أمر الله به، والأخذ بما أمر الله به، والإنتهاء عمّا نهى الله عنه، وهذا بمعرفة الدين، وما يُمليه العقل الفطري وهو من الدين.

من بعد ذلك، أنا غداً أريد أن أدخل في معالجة نفسي ومجاهدتها، أعرف أخطائي أو لا أعرفها؟ أعرف حسناتي أو لا أعرفها؟ هذا يستوجب الدخول في المحاسبة -كما سبق- أن أعرف واقع نفسي في إيجابياتها وفي سلبياتها، أعرف ما أمر الله

به وما نهى عنه، وأعرف ما أنا آخذٌ به من أوامر الله وما أنا متخلٍّ عنه من أوامر الله، وما أنا آخذٌ به جهلاً وعناداً واستكباراً وطاعةً للشيطان من معاصي الله، وما أنا تاركٌ له من هذه المعاصي. لابدَّ أن أعرف هذه الأشياء، مع الصبح وقبل الصبح، وآخذ العهد على النفس، أنتقي نقطة للمعالجة، أعرف سيئاتي الكثيرة، وأعرف التقصير في الحسنات، وكذلك أعرف بعض الإيجابيات، دعني آخذ نقطة ضعف أو نقطة قوّة؛ نقطة قوة لكي أرفع مستواي، أو نقطة ضعف حتى أتخلّص من هذه النقطة، هذه المجاهدة. أنا أكذب كثيراً أو لا أكذب كثيراً، دعني أركّز على هذا السلوك، فمع الصباح يا نفسي أعرفكِ أنّكِ تكذبين، ولابدَّ عليكِ من أن تتخلّصي من هذا الكذب، وأنا كلّي منازلةٌ لكِ، وحربٌ عليكِ ما دمتِ على هذه الصفة، أتعاهديني على أن تتخلّي، أن تعملي معي عن التخلّي عن الكذب؟

عندي عشر، عشرون، ثلاثون من النواقص، هذه النقيصة من النواقص المشينة المبعّدة عن الله، قفي عند حدّكِ، كفى، ذهب من العمر ما ذهب، أريد أن يتحوّل كذبكِ إلى صدق، هذا أخذُ عهدٍ، شرطٍ، يسمّونه المشارطة، وأخذ عهد من النفس، واشتراط عليها بأن تستجيب لي، وتمشي معي في الطريق للتخلُّص من

هذه الموبقة.

بعد أخذ العهد -خلاص في أمان الله يا نفس، لا- يأتي دور المراقبة الدقيقة، في ذلك اليوم ما من كلمة أتكلّمها إلا وأقيسها هل هي كذب بالمقياس الإسلامي أو صدق؟ قفي يا نفس، هذا كذب، كذبتِ، والله العالم كم تفلت النفس بالكذب من عندي.

أراقبها يوماً كاملاً، ألاحقها الملاحقة الدقيقة فيما تقول، وفي آخر اليوم تأتي جلسة المحاسبة، هذه شريكٌ لك في المصير، في التجارة، في الأمانة، وكذا في الخيانة، أنت سجّلتَ ذلك، إما في الفكر، أو في الدفتر، كذا كذبة، فيأتي هنا دور المحاسبة، كيف وقعتِ في ذلك؟ لم خالفتِ؟ أما خفتِ الله عزَّ وجلّ؟ أما احترمتِ الله؟ أما خفتِ من النار؟ كيف وقفتِ هذا الموقف؟ إلى آخره..

بعد ذلك مع المحاسبة -وهذا عذاب، يعني محاسبة فيها تخطئة، فيها إهانة، فيها كسر لكبرياء الذات، فيها كسرٌ لغرورها- يأتي توقيع الجزاء، سُجِّل الخطأ على النفس، فيأتي توقيع الجزاء، لا أقيم لكِ وزناً، أنت عدوٌّ لدود، سأعمل بكلّ جهدي في مواجهتكِ، توقعي النار، إلى آخره، تقريع، هُزءٌ بالنفس.

بعد ذلك إعادة الدورة، غداً آخذ العهد، أسئتِ أمس، اليوم كيف تكونين؟ آخذ العهد الذي أخذته، أنا عليّ أن أتخلّص من الكذب، وبالأمس قد خنتيني، اليوم كيف تكونين؟ وفي هذه الدورة أرى كم سلبية أريد أن أرفعها عنّي، وكم إيجابية أريد أن أعزِز وجودها فيّ، أو أنّي أفتقدها وأريد إيجادها، وهذا يستمرُّ إلى لحظة الموت، إلى ما قبل لحظة الاحتضار، يعني لا يوجد يوم راحة، لا يوجد يوم عطلة.

كانوا أشدّاء على أنفسهم، الشدّة التي تعني الرحمة، وكثيراً ما أتذكّر معكم أنّ يوم ذنبٍ صغيرٍ في نظري وعلى مستواي، يحصل لمالك الأشتر أو لأبي ذر، للمقداد، لسلمان، لأولئك الأمثلة العليا من بعد السادة المعصومين عليهم السلام، ذنب أصغر صغير، وأصغر مما أستصغره وأرتكبه وأمرُّ به مرور اللامبالاة، وإذا ذكرته أذكره دقيقة وانتهت المشكلة، سلمان المحمدي وجماعته كم يوم يتعذبون من أجل هذا الذنب الذي لا يراه أحدٌ ذنباً؟ قد يضحك: أهذا ذنب؟ -ماذا فعلت أنا؟-. الفرق ماهو؟ صفاء النفس، لا يقبل وسخ، نفسه لا تقبل أيَّ وساخة وأيَّ قذارة، الجو كلّه يظلم عليه؛ لوجود ذرّة غبار من ذنب قد دخلت نفسه، هذا هو الفارق، -والشخص المملوءة نفسه أوساخاً لا يكترث بزيادة

الأوساخ-.

فهي ذوات، إمّا طاهرة نظيفة كريمة مشعّة لألاءة، وإما ذات سوداء كالحة وحشة، لو استيقظ ضمير صاحبها لفرّ منها.

نحن ننتهي بذاتٍ من هاتين الذاتين.

وهذا -عزيزي- مَن انتهى بذاته إلى هذه الذات المستوحَش منها -التي يستوحش منها الأبرار الأخيار الكرام- هذه الذات نفسها تعني العذاب، هل ترى قسوة المحاسبة؟ هل ترى قسوة الذنب الصغير على سلمان المحمدي لو حدث منه كم هي؟ وأنّها تذهب بكل لذّةٍ من لذّاته، هذا على مستوى ذرّة غبارٍ من ذنب في الدنيا، إذا جاءت ذات كلّها سيّئات، كلّها سوداء، كلّها كالحة، صاحبها ساخط عليها، كافر بها، معادٍ لها، إذا رآها وقاس هذه الذات مع ذوات الآخرين، رآها مثالاً في السوء، في الحقارة، في الظلم، في الجهل، في الغرور، في الخيانة، في ارتكاب الموبقات، وبقيت هي على طبيعتها، ذهبت النار وبقيت على طبيعتها، حتى لو لم يكن عذاب جسد بالمّرة، إذا كانت ليلة تمرّ، ليلة عذاب وكلّها بساعاتها ودقائقها لحظات عذاب، المؤمن العادي دخل في حسابٍ مع نفسه فوجدها مقصِّرة في

ذات الله، ملتفتة إلى عظم هذا الجرم، هذا الشقاء كم تتصوره أنت يتضاعف في الآخرة؟ ومن نفسٍ رأت الله عزَّ وجلّ؟ رأت عظمة خالقها وقبح ذاتها وخساستها، فصعب جداً.

لا تفرض حطب جهنم ، ولا وقود، ولا ثعابين، ولا شيء، افرض فقط هذا، حكم ذات الإنسان على نفسه بأنّه آل بها إلى هذا المستوى.

الآن أعطيك مثالاً بسيطاً، إنسانٌ في دولةٍ مؤمنة، عاملةٍ بالحقّ، يتآمر عليها من منطلق الكفر والعناد لله ورسوله والدولة المؤمنة، يعثر على واقعه فيسجن عشرين سنة، يستيقظ في السجن، يلتفت إلى ما فعله، لِمَ سُجنتُ هذا السجن؟ يحاكم نفسه فيراها ظالمة طاغية جاهلة متعجرفة مُنكرة لحقّ الله، مؤذية للمؤمنين، مبغضة للحقِّ، مقاومة للعدل، هذا يتعذب أو يستأنس؟ هل يستعيض عن عذابه الجسدي بالراحة النفسية؟

على عكس ذلك، مؤمنٌ حقٌّ سُجِن ظلماً، وبقي عشرين سنة في السجن، وهو عارف بأنّه مظلوم، وأنّ سجنه كان من أجل الله عزَّ وجلّ، كلّما كانت القضيّة عميقة في نفسه، وواضحة في نفسه، كلما كانت قناعته متركزة بهذا الشيء، وهو أنّ سجنه كان

ظلماً، وكان لجهاده في سبيل الله عزَّ وجلّ، وأنّ تقديمه للمشنقة إنَّما هو من أجل هذا الأمر، كلّما هان عليه أمر الدنيا وعذابها، والكافر في هذه الدنيا، والفاسق سيذهب، سينتهي لمصيبتين، مصيبة العذاب البدني، ومصيبة العذاب الروحي.

كلّ العيش واللحم والخيرات واللذات التي نصل لفهمها ولا نصل، كلّها طارت وستطير، والحساب مع تلك اللحظة، لحظة الانتقال إلى جوار الله عزّ وجلّ، وهذه لا ندري متى ستحدث، الشيخ الكبير في السن يترقّبها بالدقيقة، والشابّ عليه أن يترقّبها بالدقيقة كذلك نفس الشيء،

فنفسي نفسي، والشفقة على نفسي من يوم لا يغني والدٌ عن ولدِهِ، ولا مولود عن والده شيئاً ﴿**يا أيّها النّاس اتقوا ربكم واخشوا يومًا لا يجزي والد عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن ولده شيئًا**﴾[1] ، ويوم يفتدي الإنسان هذه النفس بملك الدنيا لو كان له، علينا برحمة أنفسنا، وعلينا أن نتوب التوبة بعد التوبة، ونلجأ إلى مغفرة الله لجأً بعد لجأ، ونجاهد هذه النفس كلّ المجاهدة، مُتكلين على توفيق الله تبارك وتعالى.

والحمد لله ربّ العالمين.

---

١. سورة لقمان: ٣٣.

الفهرس

مقدمة المؤسسة ٥
تمهيد ٩
خَلق النّفس وتزكيتها في القرآن الكريم ١٩
معرفة النفس من خلال كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ٣٥
جهل النفس ٤٩
مقدمات تزكية النفس ٥٧
مراقبة النفس ٦٧
النفس اللّوّامة والنفس الأمّارة ٧٥
النفس المطمئنّة ٨١
كيف نزكي أنفسنا؟ ٨٧